الوصايا

obeikandl.com

obeikandl.com

الإخلاص في العمل

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

ومعنى: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ أي: أنه لكل من الإنس والجن درجات مما عملوا، والدرجات معناها أن الأعمال تتفاوت، والأعمال مدارها على النية[١]، والنية محلها القلب، ولا يطلع على القلوب إلا الله تعالى.

ولذلك فإن الرقيب العتيد يسجل الأعمال الظاهرة[٢]، ولكن الإخلاص في القلب، لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يُحاسب عليه، وعليه مناط الأمر كله.

وتكون درجات المؤمنين على حسب التزامهم بأمر الله تعالى، ليس هذا فقط بل مدى تطوعهم بأعمال هي من جنس ما فرضه الله تعالى عليهم، زيادة عما فرضه سبحانه عليهم.

فمثلاً نجد أن الله تبارك وتعالى فرض الصلوات الخمس، ولكن العبد المؤمن يتطوع بصلوات أخرى غير المفروضة كالسنن الرواتب مثلاً، ويقوم الليل، وهذا هو مقام الإحسان، الإحسان بمفهومه المادي، والإحسان بمفهومه المعنوي، وهو كما جاء في الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» كما علمنا الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور[٣].

والله تعالى فرض الصيام في رمضان ولكن بعض الناس يتطوع فيصوم الإثنين والخميس من كل أسبوع، أو ثلاثة أيام وسط الشهر العربي، ومنهم من يصوم يوماً

---

(١) أخرج البخاري [١] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

(٣) رواه البخاري [٤٧٧٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، ومسلم [٨/ ١] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

obeikandl.com

ويفطر يوماً، وكل هذا زيادة على ما فرض اللَّه، ولكنه من جنس ما فرض سبحانه.

وهناك من الناس من يقف عند ما فرضه اللَّه، وفي الحديث أن أعرابياً جاء إلى رسول اللَّه ﷺ وقال له: لن أزيد على ما فرض اللَّه شيئاً! فقال الرسول ﷺ: «قد أفلح إن صدق»[1].

فإذا كان من يؤدي ما فرضه اللَّه قد أفلح، فالذي يزيد على ما فرض اللَّه شريطة أن يكون من جنس ما فرض اللَّه يكون أشد فلاحاً، وهكذا تتفاوت الدرجات بين الناس في أعمالهم، والدرجات تفيد العلو والدركات تفيد الهبوط.

❁ ❁ ❁

(١) روى أحمد في المسند [١/ ١٦٢] عن طلحة بن عبيد اللَّه قال: جاء أعرابي إلى رسول اللَّه ﷺ قال: يا رسول اللَّه:
ما الإسلام؟ قال: «خمس صلوات في يوم وليلة».
قال: هل عليَّ غيرهن؟
قال: «لا».
وسأله عن الصوم.
قال: «صيام رمضان».
قال: هل عليّ غيره؟
قال: «لا».
قال: وذكر الزكاة قال: هل عليّ غيرها؟
قال: «لا».
قال: واللَّه لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن.
فقال رسول اللَّه ﷺ: «قد أفلح إن صدق».
وقال الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين. ورواه بنحوه البخاري [٢٦٧٨].

obeikandl.com

التواصي بالحق والخير

كرَّم اللَّه أمةَ محمد ﷺ بالفضل الكبير، وميّزهَا بأن تكون مناعتُها دائماً في ذواتِ أفرادِها، فإن لم تكنْ في ذواتِ الأفراد ففِي كلِّ المجموع؛ ولا يخلُو الزمان من رجلٍ صالحٍ يقول للمنكر لا[١]، ولذلك لن يأتي رسولٌ بعْد رسُولِ اللَّهِ ﷺ. فلو كانت هناكَ طامةٌ سوف تُفْسِدُ المجتمعَ وتُذِيب مناعة كل أفرادِه لكان من اللازِم أن يأتي رسولٌ.

ولكن لما كان محمد ﷺ هو خَاتمُ النبيينَ[٢]؛ فقد فضل اللَّه سبحانه وتعالى أُمته ﷺ على سائِر الأمم[٣]، فجعل وازعها دائماً فيها، بحيثُ تكونُ النفسُ لوامةً لكل فرد. والمجتمعُ نفسُه يحمِي الإنسانَ من الوُقوعِ في الخطأ، فيوجَد في المجتمع أُناسٌ يقُومون بالوعظِ والنصحِ، ويكونُ كلُّ واحدٍ في المجتمع «موصياً» وكل واحد «موصًى» ولتقرأ قول الحق: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

ومادة «تفاعل» تشرح لنا معنى «تواصَى» مثلها مثل تشارك، ومعنى ذلك أن

---

(١) روى أبو داود [٤٢٩١] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٦٠٦]، ورواه الحاكم في المستدرك [٤/ ٥٦٧].
وروى مسلم [١٩٢٠/ ١٧٠] عن ثوبان رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم كذلك».

(٢) قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.
وروى البخاري [٣٣٤٢]، ومسلم [٢٢٨٦/ ٢٠] عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء؛ كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله. فجعل الناس يُطيفون به، يقولون: ما رأينا بنياناً أحسن من هذا. إلا هذه اللبنة. فكنت أنا تلك اللبنة».

(٣) قال سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

كل واحد يقول الوصية، وكل واحد يتلقاها نصيحة؛ وذلك لأن النفس البشرية من الأغيار فقد تهيجُ النفسُ على المنهج مرةً، فتأتي الشرةُ بالشرودِ عن المنهجِ حينئذٍ يقوم واحدٌ وينصَحُ وينبّهُ، ويردّها الإنسانُ لصاحبه بعد فترة.

فالتواصِي يقْتَضِي أنْ يكُونَ كلُّ واحدٍ موصِياً وكلُّ واحدٍ موصًى، وكلُّ واحدٍ في المجتمَع الإيمَانِيّ يفتحُ عينَيهِ بالانتبَاه لنصحِ الآخَرينَ بالابتعادِ عن الضعفِ، وبذلك لا يَنْعَدِمُ أنْ يُوجَدَ في الأمَّةِ المحمَّديَّةِ مَن يُوصِي بالخيرِ في موقف وموصٍ في موقف آخر بحيث لا يتأبى الإنسانُ على وِصَايَةِ غيره، ولا عجب فالمؤمن مرآة أخيه[1].

(١) روى أبو داود [٤٩١٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»، وحسنه الألباني في صحيح أبو داود [٤١١٠].

obeikandl.com

الضرب على يد صاحب المنكر

يريدُ اللّه أن يَلفِتنَا إلى أنّنا يَجبُ ألّا نتركَ الفِتَن والمعاصِي حتى يستعْصِيَ حلُّها وتصبحَ كبيرةً، بل لا بدّ أن نُواجِهَها وهِي صغيرةٌ لأنّهُ في هذه الحالةِ إذا نزَلَ العقابُ فإنهُ لا يُصِيبُ الذين ظَلمُوا فقط ولكنهُ يصيبُ أيضاً مَن تركوا هذه الفِتَنَ تكبُر وتزدادُ، ولذلك إذا رأيتَ أيّ انحرافٍ في أيّ شيءٍ فاضْربْ على يدِ المنْحَرِفِ فإنَّ المعصِيَةَ تكْبُرُ إذا تُرِكَتْ؛ فالذي تمرس في الإجرام حتى أصبح زعيم عصابة مثلاً لم يبدأ المعصيةَ هكذا، بل إنه رُبما أولَ ما سَرقَ سرقَ مِن أبيه، أو من أمه، أو من أخيه، ولم يُعَاقَبْ، فسرق مِن الجِيرانِ، ثم بدأ يسرقُ من الحَيّ، ثم اجتمَع مع عددٍ من الأشْرارِ وكوَّنَ العصابَةَ؛ فلوْ أنّهُ ضُربَ عَلى يدِه في الجَرِيمةِ الصّغيرةِ لمَا أصْبَح زَعِيمَ عِصَابَةٍ، وإياكَ أن تقولَ إنَّ هذا الشيءَ ما دامَ لم يَمسَّني فليسَ من شَأني لأنَّ الذي اعْتدَى على غيرِك مِنَ السَّهْلِ أن يعتدِيَ عليكَ. وكلُّنا نذكُرُ مثلاً قصة الثور الأبيض والثور الأحمر عندما جاع الأسدُ تركهُ الثورُ الأحمرُ يأكلُ الثورَ الأبيضَ ما دَام لمْ يتعرضْ لهُ بأذى، ثمَّ لما جاعَ الأسدُ انطلقَ ليَفْترسَ الثورَ الأحمرَ الذي قال: «أنا أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثورُ الأبيضَ» لأنّي لو وقفتُ يومَها معَ الثور الأبيضِ نُواجِهُ الأسَدَ وقاوَمْناهُ لما جَرُؤ على أن يَفترس أياً منّا[1].

---

(١) يروى أن أمير المؤمنين علياً رضي اللّه تعالى عنه قال: إنما مثلي ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كنَّ في أجمةٍ أبيض وأسود وأحمر، ومعهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهن عليه، فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ولوني على لونكما، فلو تركتماني آكله صفتْ لنا الأجمة، فقالا: دونك فكله، فأكله، ثم قال للأحمر: لوني على لونك، فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة، فقال: دونك فكله، فأكله، ثم قال للأحمر: إني آكلك لا محالة، فقال: دعني أُنادي ثلاثاً، فقال: افعل، فنادى ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض، ثم قال علي رضي اللّه تعالى عنه: ألا إني هُنت ـ ويروى: وهنت ـ يوم قتل عثمان يرفع بها صوته.

مجمع الأمثال للميداني: الجزء الأول، الباب الأول، فيما أوله همزة.

ولكن لماذا يعمُّ العقاب؟ لأنَّهم لمْ يضرِبُوا على يَد صَاحِبِ الفِتْنَةِ الأولى وهِيَ لا تزالُ صغيرةً، فالأبُ مثلاً إذا وجَدَ الابْنَ أو الابنَة إذا أحْضَرَا أشياءَ مِنَ الخارجِ وهو لمْ يُعْطِهِمَا ثَمَنَها فلا بُدَّ أن يسْأَلَهُمَا مِنْ أينَ لكَ هذا؟ ولنا في قصةِ سيدتنا مريمَ وسيدِنا زكريا العبرةُ والعِظَةُ حين سألها لما وجد عندها رزقاً لم يأت به وكان عليه السلام كافلها، والقائم على أمرها، فقال لها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧].

إذن.. يجب أن يُضرب على يَدِ كل معتد؛ ولذلك فإنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى في عقوبة القتل ـ الذي هو قمة المفاسد ـ جعلَ الدِّيَةَ على العائِلَةِ حتى يَضْرِبُوا على يَدِ مَنْ تُسَوِّلُ لهُ نفسُه قبلَ أن يرتَكِبَ الجَرِيمةَ.

والناسُ إذا رأَوْا الظَّالِمَ ولم يضرِبُوا على يَدِه يُوشِكُ أنْ يَعُمَّهم اللَّه تعالى بعقاب مِن عندِهِ، لأنهُ ما اسْتَشْرَى هذا الظالم في ظُلْمِهِ إلا لأنَّ الناسَ سكتُوا على هذا الظُّلمِ.

وأنتَ حينَ تَتستَرَ على مَن يفعلُ شرا لِتتَّقِيَ بذلك شَرَّهُ فإنهُ لا بدّ وأن سيأتي اليومُ الذي يُصيبُكَ مِنه شرٌّ كَبِيرٌ.

ولذلك فسيدُنا أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضيَ اللَّه عنه قال: إنكم تقرأونَ آيةً في كتاب اللَّهِ علَى غيْرِ وجْهِها، تقرأون قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾(١) [المائدة: ١٠٥] ومِن هِدايَتِكم أن تَضْرِبُوا علَى يَدِ صَاحِبِ المنكَرِ لأنَّ هِدَايَتَهُ سَتنعَكِسُ عليكُم وعلى المجتمَع كله بالخَيرِ، ورسولُ اللَّه ﷺ يُعْطِينا المثَلَ الذي يُعطِينا الصورَةَ كَاملةً فيقولُ عليه الصّلاةُ والسلام: «مثل المدهن في حدود اللَّه والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذين في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به، فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي ولا بدّ لي من

---

(١) روى أحمد في المسند [١/٧] عن أبو بكر رضي اللَّه تعالى عنه قال: إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك اللَّه أن يعمهم بعقابه». وقال الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨] وابن ماجه [٤٠٠٥] وصححه الألباني في صحيح الترمذي [١٧٦١].

الماء، فإن أخذوا على يديه أَنجوهُ ونَجوا أنفسهم، وإن تركوه أَهلكوهُ وأَهلكوا أنفسهم»[(١)].

هذا الحديثُ يُقسِّمُ الناسَ إلى قِسْمَين: قائمٌ على حدودِ اللَّهِ وَوَاقِعٌ فيها؛ وقد ركِبُوا سَفِينَةً، والسَّفِينَةُ لها أعْلَى ـ وهُو السَّطْحُ ـ وأسْفَل.

ومعنَى اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، أيْ: لمْ يُوجَد قَوِيٌّ فَرَضَ سلطانه على غيرِهِ لأنَّهم ما دامُوا اسْتَهَمُوا أي أجْرَوْا قُرْعَةً وهذَا يَحْدُث كُلَّما اختَلَفَ الناسُ علَى شيءٍ منهم يُجْرُونَ القُرْعَةَ لحسْمِ الخِلافِ ـ فقد حسموا الأمر بينهم.

وكان الذين في أسفل السّفِينةِ ـ إذا أَرادُوا الماءَ ـ صعَدُوا إلَى السَّطْحِ لِيُلْقُوا الدَّلْوَ ويُحْضِرُوا المَاء، فقالُوا نحنُ نُؤْذِي المقِيمِينَ على السَّطْحِ وَنَتْعَبُ صُعُوداً وهُبوطاً فلو أنَّنَا خَرقْنَا في الجْزءِ الخاصّ بنا خَرْقاً نأخذُ مِنْهُ الماءَ لَكانَ ذَلكَ مُرِيحاً بالنِّسْبَةِ لنَا فَلَوْ أَنَّهُم تركُوهم يخرِقُون الخرقَ الذي يُرِيدُونَ لهَلكُوا جميعاً، ولو أَنَّهم أخذوا عَلَى أيْدِيهم لَنجَوْا جمِيعاً.

وليس معنَى هذا أن يقومَ كلُّ إنْسانٍ بِتطْبِيقِ العقُوبَةِ، فهذا خاص بوليّ الأمر، ولكن العامة مأمُورونَ أن يستخدموا اللسانَ والقلبَ[(٢)] في استنكار الفِتَنِ التي تحدثُ.

وكلُّ واحدٍ منَّا مُطَالَبٌ بأنْ يضرِبَ على يدِ مَنْ هُو تحتَ وِلَايَتِه؛ فالأبُ لهُ زوجتُه وأولادهُ، ورئيسُ المصلحةِ لهُ مَن يَعملُون تحتَ رِئاسَتِه والحاكِمُ له العُمومِيَّةُ.

ولوْ أن كُلَّ واحدٍ منَّا فعل هذا في نِطَاقِهِ مَا وُجِدَ فَسادٌ؛ فالمجْتَمَعُ مَكَوَّنٌ من أُسَرٍ، فإذا ما منع ربُّ الأسْرَةِ الفسادَ فيها اتّجهَ المجتَمعُ كلُّه للصَّلَاحِ.

وكلُّ عَمَلٍ لهُ رَئِيسٌ مسؤولٌ عنهُ، لو مَنعَ الرئيسُ الفسادَ لامتنَعَ الفسَادُ في

---

(١) رواه البخاري [٢٦٨٦] عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه.

(٢) روى النسائي في المجتبى [٨/ ١١١/ ٥٠٠٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» وقال الألباني: صحيح.

المجتمَع وَبَقِيَ بعد ذلك الأمرُ العامُ لِلحَاكِم. وفي الحديث: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

(١) جزء من حديث رواه البخاري [٨٩٣] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. قال ابن حجر في الفتح: فإن قيل قوله: «كلكم راع» ليعم جميع الناس فيدخل فيه المرعي أيضاً، فالجواب: أنه مرعي باعتبار «راع»، حتى ولو لم يكن له أحد كان راعياً لجوارحه وحواسه، لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده.
فتح الباري [٢/ ٣٨١]

obeikandl.com

إذَا أنْعَمَ اللّهُ علَى عَبدٍ رزَقَهُ الاسْتِقَامَةَ

لو عقل الناسُ لعرَفُوا أنّ توْرِيثَ القِيَمِ يَفُوقُ توْرِيثَ المال وذلك لأنّ القِيَمَ تَجعلُ المالَ خادِماً لِلإنسَانِ لا سَيّداً له.

والاستِقَامَةُ الإيمانيَّةُ تُوفِّرُ للإنسَانِ مِن الكرَامَةِ فوقَ ما يتصَوّر أحد. إنّ أحداً منّا لَمْ يَرَ استِقَامَةً تُكلّفُ مالاً إنما الذي يكلّفُ المالَ هوَ الانحرافُ.

إن الانحرافاتِ هيَ بالوعات للمالِ، أما الاستقامة فلا تُكلّفُ شيئاً وتُوفّرُ للإنسانِ الخيرَ والمالَ (١).

---

(١) قال اللّه تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].
قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولغيره.
وقيل: له والمراد أمته؛ قاله السديّ.
وقيل: «استقم» اطلب الإقامة على الدين من اللّه واسأله ذلك. فتكون السين سين السؤال، كما تقول: أستغفر اللّه أطلب الغفران منه. والاستقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال، فاستقم على امتثال أمر اللّه.
وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد اللّه الثقفي قال: قلت يا رسول اللّه قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك!
قال: «قل آمنت باللّه ثم استقم» (١).
وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال: دخلت على ابن عباس فقلت أوصني! فقال: «نعم! عليك بتقوى اللّه والاستقامة، اتبع ولا تبتدع» (٢).
﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي: استقم أنت وهم يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته.
قال ابن عباس ما نزل على رسول اللّه ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! فقال: «شيبتني هود وأخواتها» (٣).

---

(١) رواه مسلم [٣٨/ ٦٢].
(٢) رواه الدارمي [١/ ٦٥/ ١٣٩].
(٣) ذكره ابن سعد في الطبقات [١/ ٤٣٠].

obeikandl.com

= وروي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا عليّ السري يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول اللّه! روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود».

فقال: «نعم».

فقلت له: ما الذي شيبك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم!

فقال: «لا ولكن قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾».

تفسير القرطبي [٩/ ١٠٧]

obeikandl.com

التثبُّت.. والتبيُّن.. وعدم التسرُّع

يقول رب العزة تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤].

إنها آية جمع اللّه تعالى فيها بينَ كلّ المعاني، ففيها الحُكمُ وحَيثيتُه والمرادُ منه.

بدأ سبحانه الآية بنداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، والخطابُ بالإيمانِ حيثيةُ الالتِزام بالحكم، إنه سبحانه لم يقلْ: يا أيها الناس إذا ضربتم فتبينوا، ولكنه قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ أي: إنه سُبحانهُ يُطَالبُ المؤمنينَ بِه بالتكليف لأنهم آمنُوا به إلهاً. وما دامُوا قد آمنوا فعليهم اتباعُ ما يطلبُه اللّه؛ إذن.. حَيثيَّةُ كلِّ حكم من الأحْكَام أنَّ المؤمنَ قد آمنَ بمَن أصَدَر الحُكمَ، فإياكَ أيُّها المؤمنُ أن تقولَ: «ما العلة؟» أو «ما الحكمة؟»، وذلك حتى لا تدخل بنفسك في متاهة، ونحن نؤكد على هذه المسألةِ لأنها تطفُو في أذهان الناس كثيراً، ويسألُ البعضُ عن حكمةِ كلِّ شيءٍ، ولذلك نقولُ: إذا لم تؤمن بالشيءِ إلا إذا عرفتَ حِكمتَهُ، صِرْتَ إلى الحكمةِ لا إلى الآمِر بالحكم.

ونحنُ نرَى في حياتِنا الآنَ الذين لا يُؤمنون بإلهٍ، أو يُؤمنونَ بإلهٍ ولكنّهم أسرفوا على أنفسهم، وارتكَبُوا الكبائرَ كشهادةِ الزورِ أو أكل الربا.. ولنأخذ مثلاً شارب الخمر عندما يُحلِّلُ الأطباءُ كبِدَه يجدُهُ قد تليَّفَ، فيقول له الطبيب: إنَّ أيَّ جرُعةِ خَمرٍ زائدة ستُسَبِّبُ الوفاةَ، هنا يمتنعُ عن شُرْبِ الخمرِ! لماذا امتنَعَ؟ لأنهُ عَرفَ الحكمةَ، فهل كان امتناعُهُ عن الحكْمِ تنفيذاً لأمرٍ إلهيّ؟ لا.. ولكنّ المؤمنَ يمتَنِعُ عن الخمْرِ للّه، لأنّهَا حُرِّمَت بحكمٍ من اللّهِ. إنَّ المؤمِنَ يُنَفِّذُ كلَّ الأحكام حتى في الأشياءِ غيرِ الضارةِ فَمَن الذي قالَ: إن اللّه لا يُحرِّمُ إلا الشيءَ الضَّارّ..؟ إنهُ قد يُحَرِّمُ أمراً لتأديبِ الإنسانِ. ونضربُ هذا المثلَ ـ وللّه المثلُ الأعلَى ـ إن

الرجل يقولُ لزوجته ـ إياكِ أن تعطِي ابنَنا بعضاً من الحلوى التي أحضرْتُها، لأنه لم يفعل كذا وكذا مما أمرته به، إنهُ يمنع الحلوَى لا لأنها ضارّة ولكنه يريدُ أدب الابنِ والتِزَامه. والحقُّ سبحانه قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] إن الذي يذهبُ إلى تنفيذ حكمِ اللَّهِ إنما يذهبُ إليه لأنّ اللَّهَ قد أمر به، وليس لأنَّ حكمةَ الحكمِ مفيدةٌ له.

فلوْ ذَهبَ إنسانٌ إلى الحكمِ من أجْلِ فائِدَتِهِ أو ضرَرِه فإنَّ الإيمانَ يكونُ ناقِصاً لكنَّ اللَّهَ يُرِي في كثيرٍ مِن الأوقاتِ حكمتَهُ في كثيرٍ من الأحكامِ حتى يَرَى الإنسانُ وجهاً من الوجوهِ اللانهائية لحكمةِ اللَّهِ.. فيقولُ الإنسانُ «أنا لم أكن أعرف حكمة كذا.. ثم بينتْ لِيَ الأحداثُ والتحاليلُ صِدْقَ اللَّهِ فيما قال» وهذا يُشجعُ الإنسانَ أن يأخذَ أحكامَ اللَّهِ وهو مسلّمٌ بها، فهي دليل على صحة إيمانه.

إن الحق يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إنها الحيثية.. يا من آمنت بي إلهاً قادراً حكيماً اسمعْ منّي ما أريدُه منك.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الضرب كما نعرفه هو انفعال الجارحة على شيء آخر بعنف وقوة، وكلمة ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١] معناها أن الحياة كلها حركةٌ وانفعالٌ.. ولماذا الضرْبُ في الأرضِ؟ لأن اللَّهَ أودَع فيها كل أقواتِ الخلْقِ[1]. فحينَ يحبُّونَ أن يُخرِجُوا خيْراتِها فالبشرُ يقومُون بحرْثِها حتى يهيِّجُوها ويَرْموا البُذُورَ وبعدَ ذلك يتعهدونها بالريّ، ومن بَعدِ ذلك تخرُجُ الثمارُ، إن هذه عمليةٌ يسمونها إثارة للأرْض.

إذن.. كل حركة تحتاج إلى قوةٍ ومكافحةٍ. وقوله سبحانه: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] وما دامت المسألة ضرباً في الأرض فهي تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوةٍ ولذلك يُقالُ: إن الأرضَ تحبّ من يُهينُها بالعزقِ والحرثِ، اشتدت حركةُ الإنسانِ في الأرضِ كلما أخرجت له خيراً، والضربُ في سبيل اللَّه هو الجهادُ، أو لإعدادِ مقوّمات الجهادِ، والحقُّ سبحانه يقولُ لنا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] والإعداد هو أمرٌ يسبقُ المعاركَ.. وكيف يتمّ الإعدادُ؟ لا بدّ أولاً أن نقومَ بإعداد الأجسام، والأجسامُ

---

(١) إشارة إلى قول اللَّه تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

تحتاجَ إلى مقوماتِ الحيَاة ولا بدَّ أن نقومَ بإعدادِ العُدَدِ، والعُددُ تحتاجُ إلى بحثٍ في عناصِر الأرضِ وبحثٍ فِي اختلافاتِ الصناعاتِ، وكلُّ عمليات الإعدادِ تتطلَّبُ من الإنسان البحثَ والصنعةَ، ولذلك جاء في الحديث: «إن اللَّه يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه، يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله»(١) لماذا؟ لأن هناك إنساناً قام بقطعِ الخشبِ وصقلِهِ الذي يتم منه صناعةُ السهمِ وهناكَ إنسانٌ وضَعَ للسهم النَبل.. وهناك من يرمي السهمَ بالقوسِ.

إن الحقَّ سبحانه يريدُ منا أن نكونَ أقوياء حتى يكونَ الضربُ منا قوياً. وقوله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾ هنا يُوجبُ علينا أن نعرف أن الضرب في سبيل اللَّه لا يكونُ في ساعةِ الجهاد فقط، ولكن في كلِّ أحوالِ الحياة.. لماذا؟ لأن كل ما لا يتأتَّى الواجب إلا بِه فهو واجبٌ(٢).

إذن.. قوله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾ [النساء: ٩٤].

معناه هو: لا تأخذوا الأمورَ بظواهِرِها إلا إذا تثبَّتُّم وتأكّدتم. ولماذا التبين؟ وذلك حتى لا يصيبَ المؤمنون قوماً بظلم.. ولهذا الأمرُ قصة.

فبعضُ آياتِ القرآن تأتي بعد قصّة ما.. لقد كان هناك واحدٌ اسمُه «محلم بن جثامة» وكان بينه وبين آخر اسمه «عامر الأشجعي» إحَنٌ، أي شيءٌ من البغضاء، وبعد ذلك كان «محلم» في سرية وهي بعض من الجند المحدودِ العدَدِ، وصادَف محلم بن جثامة، عامر الأشجعيّ وكان «عامر» قد أسلمَ، فلما ألقَى السَّلام على «محلم» ومن معه قال «محلم»: إن «عامراً» قد تظاهر بالإسلام ليهرب مِنِّي فحمل عليه، وقتل محلمٌ عامراً، وذهب إلى رسول اللَّه ﷺ، سألهُ الرسولُ ﷺ: ولماذا لم تتبين؟ ألم يلقِ إليك بالسّلام؟.. كيفَ تقول له إنك تقول: «السلام عليكم» لتنقذ نفسك من القتل؟

وقال الرواة: فلما مات «محلم» ودفن لفظته الأرض مرة بعد أخرى.

وكلما كانت تأتي آيةٌ مخالفةٌ لنواميسِ الدنيا المفهومة للناس.. كان

---

(١) جزء من حديث رواه أبو داود [٢٥١٣] عن عقبة بن عامر الجهني رضي اللَّه تعالى عنه. وضعفه الألباني في ضعيف أبو داود [٥٤٠].

(٢) قاعدة فقهية مشهورة، انظر القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام [ص: ٩٦، ٩٧] القاعدة [١٧].

رسول اللّه ﷺ يحرصُ ألا يُفتَنَ الناسُ في هذه الآيات فيصحح لهم ويرشدهم إلى ما فيه صالحهم.

ومثالُ ذلك: عندما ماتَ إبراهيمُ بن النبيّ ﷺ، حدث أن انكسفت الشمسُ، فقال الناسُ: انكسفتِ الشمسُ من أجلِ ابنِ رسول اللّه ﷺ، ولكن لأنّ المسألةَ مسألةُ عقائدٍ، فقد قال الرسولُ ﷺ: «إن الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ اللّه لا يخسفانِ لحياةِ أحدٍ أو موتِه»(١) لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول اللّه وابنه إبراهيم ولكنّ الرسولَ يريدُ أن يُصححَ للناسِ مفاهيمَهم وعقائِدَهم.

وعندما لفظتْ الأرضُ «محلماً» وحتى لا يفتَتِن أحدٌ أو يقول: إن هناك كفاراً كثيرين قد دُفِنُوا ولم يُلْفَظُوا.

لم يسكت الرسول ﷺ على ذلك حتى لا تحدُث هزةٌ ولو بَسيطةٌ في جزئيةٍ، ويقول الناس إن أبا جهل في حالٍ لا بأسَ به وكذلك الوليدُ بن المغيرة فهما لم تلفظهما الأرض كما لفظت «محلماً».

لكنّ الرسولَ أوقف مثلَ هذه الأمور قبل أن تساور أحداً، وقبل أن يستغلها الشيطان لزعزعة الإيمان في نفوس المؤمنين، فقال: «أما الأرضُ فقد قبلت من هو شرٌ من محلم ولكنّ اللّهَ أرادَ أن يريكم آيةً في قتل المؤمن» وفيه نزل قول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾(٢) [النساء: ٩٤].

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري [١٠٤٤]، ومسلم [١/٩٠١] عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها.

(٢) ذكر القصة ابن الأثير في أسد الغابة [٥/ ٧١] عن القعقاع بن عبد اللّه بن أبي حدرد، عن أبيه قال: بعثنا رسول اللّه ﷺ إلى إضم، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة، ومحلم بن جثامة، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مَرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على بعير له، فلما مَرَّ علينا سلم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه، وحَمَل عليه مُحلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتاعه. فلما قدمنا على رسول اللّه ﷺ أخبرناه الخبر، فنزل فينا القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ الآية [النساء: ٩٤].
وذكرى الطبري أن محلم بن جثامة توفي في حياة النبي ﷺ فدفنوه فلفظته الأرض مَرَّة بعد أُخرى، فأمر به فألقِي بين جبلين وجعل عليه حجارة، وقال رسول اللّه ﷺ: «إن=

وعلى ذكر ذلك جاءتني رسالةٌ يقول فيها صاحبُها: كنتُ أسمعُ إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا: «فتثبتوا» بدلاً من «تبينوا» في قول الحق تبارك وتعالى في سورة الحجرات: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦].

ولكن السامع الذي أرسل الخطاب سمعها «فتثبتوا».. نقول له: إن هذه قراءة من القراءات، والمعاني دائماً ملتقية، فـ«تبين» معناها «أطلب البيانَ لتَتَثَبَّتَ».

ولنا أن نعرفَ أن القرآنَ قد نزلَ على سبعةِ أحرُف وكتابةُ القرآنِ كانت بغيرِ نقطٍ وبغير شكل ـ وهذا حالٌ غير حالنا، نجد الحروف قد تم تشكيلُها بالفتحةِ والضمةِ والكسرةِ ونحنُ نعرفُ أن هُناك حرُوفاً مُشتبهةَ الصورةِ فالـ«با» تتشابهُ مع «التا» و«اليا» وكذلك «النون» و«التاء» و«الثاء» ولم تكنْ هذه النقطُ موجودةً، ولم تكن هذه العلاماتُ موجودةً قبل الحجاج بن يوسف الثقفيّ، وكانوا يقرأون بِمَلَكَةِ العربيّة.. ولذلك إن لم يُصِبْ نصّ الكلمةِ فهو لا يبعدُ عن معناها. ومثال ذلك «فتبينوا» إنها مكونة من الـ«فاء» ولم يحدثْ فيها خلاف وكذلك «التاء» وبقيةُ الحروف هي الباء والياء والنون.. وكل واحدة من هذه الأحرف تصلحُ أن نجعلَها «تثبتوا» بوضع النقاط أو نجعلَها «تبينُوا». إنهُ خلافٌ في النَّقطِ.. ولو حذفْنا النقطَ لقرأناها على أكثرِ مِن صورةٍ.. إما على المعنى الصحيح أو المعنى القريب من المعنى الصحيح.

ولذلك عندما جاؤوا لواحدٍ لم يكنْ يحفظُ القرآنَ وأحضرُوا لهُ مصحفاً ليقرأ ما فيه فقالَ: «صنعة اللّه ومن أحسن من اللّه صنعة» ولم يحدثْ خلافٌ في «الصاد» ولكن حدثَ خلافَ في معنى الآية، فـ«الباء» صالحة لتكون «با» أو «نا» وكذلك «الغين» يمكن أن تكون «عيناً» لذلك فالآية في قراءة حفص: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] وعندما قرأها الإنسان الذي لا يجيد

= الأرض لتقبل من هو شر منه، ولكن اللّه أراد أن يُريَكم آية في قتل المؤمن»[١]
قال أبو عمر: وقد قيل: إن هذا ليس محلم بن جثامة، فإن محلماً نزل حمص بأخَرَة، ومات بها في أيام ابن الزبير. والاختلاف في المراد بهذه الآية: كثيرٌ جداً، قيل: نزلت في المقداد، وقيل: أُسامة، وقيل: في محلم. وقيل: في غالب الليثي. وقيل: نزلت في سرية، ولم يُسَمّ قائل هذا أحداً. وقيل غيرهم، وكان قتله خطأ.

---

(١) رواه الطبري [٥/ ١٤٠، ١٤٢] وانظر تفسير ابن كثير [٢/ ٣٣٨]، والسيوطي في الدر المنثور [٢/ ٢٠٠].

قراءة القرآن على طريقة حفص قال: «صنعة اللَّه ومن أحسن من اللَّه صنعة» إن المعنى واحد، فهو وإن لم يقع عليها فقد وقع قريباً منها لماذا؟ لأن الملكةَ عربيةٌ وعندما ينطِقُ سيأتي بالسياق الذي يأتي بالمعنى.

وكذلك من قرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٦] هذه هي قراءة حفص، ولكن الذي لم يحفظْ القرآنَ قبل تنقيطِ حرُوفه قرأَها: «قال عذابي أصيب به من أساء» صحيح أن كلمة «أساء» فيها ملحظ آخر للمعنى؛ لكن القراءة الأخرى لم تبعْد بالمعنى وعلى ذلك فكلمةُ «فتبينُوا» تُقْرَأُ مرةً «فتثبتُوا» ومرةً تُقْرَأ فتبينُوا في الآيتين.. سواء في هذه الآية أو في الآية التي يقول فيها الحق: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا﴾.

والتبين يقتضي الذكاء والفطنة حتى يتعرفَ الإنسانُ من إيمانِ مَن ألقَى إليه السلام، هل يصلِّي؟ هل، هل.. والحقُّ يقولُ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، إن الذي يكفي المؤمن شر الظن إذا ما قال أحدٌ: السلام عليكم، هنا يجب أن يفطَنَ المسلمُ إلى أن أمر القلوب لا يعلمه إلا اللَّه تعالى وألا يأخذَ إنساناً بالشبهات.

ولذلك نجدُ النبيَّ يحزِمُ الأمرَ مع أسامةَ بن زيد الذي قتل واحداً بعد أن أعلَن هذا الواحدُ إسلامَهُ بقوله: لا إله إلا اللَّه؛ وظن أسامة أنه قالها خوفاً من السلاح، فقالَ له النبيّ ﷺ: «أفلا شققت عن قلبه»(١) إن أسامةَ رضي اللَّه تعالى عنه قال للرسول ﷺ: لقد قال الشهادة ليحمِيَ نفسَهُ من الموتِ، فكانت الإجابةُ: هل شققْت عن قلبِهِ فعرفت أن قوله: «لا إله إلا اللَّه» كان خوفاً من القتل؟!

إن لقول: «لا إله إلا اللَّه» حُرمةً، فساعة يقولها الإنسان تعصم دمه، فلا يجوز قتله، لقد قال أهل العلم: إن نجاةَ ألفِ كافرٍ خيرٌ من أخذِ مؤمنٍ واحدٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ [النساء: ٩٤].

يعني: أعلن إيمانه حتى ولو كان مستسلماً تحت بريق السيف، إنه ليس من حق أحد أن يُلقِي الاتهامَ بعدم الإيمان على مَن جاء مسلماً أو يقول بتحية الإسلام.

وكلمةُ: ﴿عَرَضَ﴾ إذا ما سمِعْناها، فلنعْلَم أن معناها اللغوي: هي كل ما يَعرِضُ ويزولُ وليس له دوامٌ أو استقرار أو ثباتٌ، ونحن ـ البشر ـ أعراضٌ؛ لأنه ليس لنا دوامٌ أبداً.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم [٩٦/١٥٨] عن أسامة بن زيد رضي اللَّه تعالى عنهما.

ويُقالُ إن الإنسانَ عَرَضٌ إذا ما قاس الواحدُ منا نفسه بالنسبةِ للكوْن، لأن الكونَ لا يتمّ بناؤهُ على الإنسان بل إنّ الكونَ كله الذي نراه هو عرض لأنه سيأتي عليه يوم ويزول.

إذن.. فالعرض بالنسبة لكل شيء بحاجته، والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً، هنا تكون الصحة عرضاً وكذلك المرض، وكذلك السمنة والنحافة، ولون البشرة إذا ما تعرض للشمس يتغير من أبيض إلى أسمر. وكذلك الغنى والفقر، وكل شيء يمكن أن يذهب في الإنسان ويأتي فهو عرض بالنسبة للإنسان، ويكون الإنسان جوهراً بالنسبة له، فإذا قسنا الإنسان إلى ثابت عنه، فالإنسان عرض، فعندما نقيس الإنسان ببناية يكون عرضاً، لأن البناية ستظل والإنسان سيذهب.

وعندما نقيس الدنيا نجدها عرضاً، يقول تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤] وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع المقاتل فيما يملكه الذي يلقي السلام، وقد يكون عرض الحياة الدنيا هنا هو عزة نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إحَنٌ أو بغضاء، وعندما نسمع كلمة: ﴿عَرَضَ﴾ وهذا العرض في الحياة الدنيا، نفهم أن ذلك عرض فيما لا قيمة له، ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شيء كان عنده، وينسى هذا الإنسان أنه هو نفسه معرض للموت فيقول:

نفسي التي تَملِكُ الأشياء ذاهبةٌ فكيفَ آسَى على شيءٍ لها ذَهَبَا

وكذلك: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، نحن نفهم كلمة «دنيا» على أساس الاشتقاق «علواً» وعلى ذلك يكون مقابل «الدنيا» هو «العليا».

ومن يرغبُ في: ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فعليه أن يملك الذكاء والحكمة والفطنة، فلا يجب أن يأخذ العرض ممن سيقتله، ولماذا لا يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة الدنيا ممن خلقها؟

إن العاقل لو أراد الحياة الدنيا فليأخُذها من خالق الحياة كلّها ومالكها، ولا يأخُذها من إنسانٍ مثله.. لأن الإنسان لا يملك الحياة الدنيا بدليل أنه معرَّضٌ للقتلِ.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤] والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس البشرية التي خلقها فهو سبحانه يعلم تعلقها بالأشياء التي تنفعها أو تعطيها اللذة حتى لو كانت مؤقتة، مثل

ذلك: الإنسان يكون سعيداً إذا ما تناول غداءه، ويكون سعيداً أكثر إذا امتلك الغداء والعشاء، ويكون أكثر سعادة عندما يمتلك قوته لمدة شهر أو عام، ويكون أكثر إشراقاً بالسعادة عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق، لنفسه وكذلك أولاده من بعده.

إذن.. فالإنسان يحب الحياة لنفسه ويحب امتداد حياته في غيره، ولذلك نجد الإنسان يحزن عندما لا يكون عنده أولاد، لأنه يعرف أنه ميت لا محالة، لذلك يتمنى أن تكون حياته موصولة في ابنه، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فالإنسان يسعد أكثر لأن ذكره سيكون في جيلين، هنا نقول لمثل هذا الإنسان: لنفرض أنك ستحيا ألف جيل، لكن ماذا عن حالتك في الآخرة؟ ليس أمامك إلا أن تعمل صالحاً، وتنشئ وَلَدَك على الصلاح حتى يدعو لك[1].

ولذلك يكشف الحق سبحانه وتعالى النفس البشرية المتحولة التي تهفو إلى المغانم أمام صاحبها فيأتي بالحكم الذي يظهر الخواطر التي تجول في النفس البشرية ساعة سماع الحكم.

الحق سبحانه لما قضى أن يحرم دخول المشركين البيت الحرام وقال الحق سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. فمعلوم أن المشركين حين يدخلون البيت الحرام، يدخلون بتجاراتهم وأموالهم.

إذن.. فهم يذهبون إلى موسم اقتصادي يبيعون ويشترون البضائع ويعيش أهل الحرم من ريعها طوال العام، وعندما يحرم الحق دخول المشركين إلى البيت الحرام يعلم الحق أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون المكاسب والبضائع والتجارة والمغانم التي سيحرمون منها فيقولون في أنفسهم: وكيف سنعيش؟ ولأن الآمر هو الخالق سبحانه الذي يعلم السر وأخفى فقد طمأنهم على حياتهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٢٨].

ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق! ونحن هذه الأيام نمر بمثل هذا الكلام، فعندما يقول المحبون لدين الله الغيورون على شرعه: يجب أن نمنع

---

(١) روى مسلم [١٦٣١/ ١٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»، وأبو داود [٢٨٨٠]، والترمذي [١٣٧٦]، والنسائي [٦/ ٢٥١]، وأحمد في المسند [٢/ ٣٧٢].

الخمر! فيقول الآخرون: وماذا نفعل في السياحة التي تأتي لنا بأموال كثيرة تنعش اقتصاد الدولة؟ هنا نقول لهم ما قاله الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾. وقد يرزقنا الله عندما نعف عن الخمر وغيرها من المحرمات بأشياء تفوق الحسبان، كآبار بترول جديدة أو ثروات معدنية أكثر قيمة من البترول.. إننا لن نُعلم الله ـ معاذ الله ـ ماذا يصنع لنا، إنه كفيل بنا ما دمنا نأخذ بأسبابه ونمتنع عن المحرمات. إن الذين يظنون أن الخمر هي عماد السياحة مخطئون.. ولنتدبر قول خالقنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

إن قول الحق تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ هذا القول ينطبق على أهل كل عصر وكل زمان وتكون الإجابة على هذا القول فيما جاء من بعد ذلك ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ ولذلك أنا أحب أن يتفكر الناس دائماً في قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ لعل آية من هذه الآيات تمس قلوب الرعاة أو من بيدهم الأمر فيلتفتوا إلى شرع الله الذي يرزقنا جميعاً. كذلك أُحب أن يتدبر الناس قول الحق سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إنها دعوة لأن يأخذ المسلمون العبرة من تاريخهم القريب ويتعاونوا فيما بينهم، ويكونوا يداً على من سواهم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ لقد كان المسلمون الأوائل قلة مُستَذَلَّة تداري إيمانها.. فهل سلط الله عليهم أحداً يجترئ على التفتيش في النوايا؟!

إذن.. فمثلما حدث لكم قدروا لإخوانكم فـ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤]. إن الله مَنَّ عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة، وصار المسلم يمشي عزيز الجانب[1] ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أي شيء.

---

(١) عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد». جزء من حديث طويل رواه أحمد في المسند [٤/ ٢٥٧].

وعنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنت عند رسول الله ﷺ فجاء رجلان يشكو أحدهما العيلة، ويشكو الآخر قطع السبيل، فقال رسول الله ﷺ: «أما قطع السبيل فلا يأتي=

قول الحق: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ هنا بعد أن قالها في صدر الآية، الأولى مقصود بها: ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر في المسألة الاقتصادية، إذن.. ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ جاءت أولاً تمهيداً للحيثية، وها هي تأتي مرة ثانية نتيجة للحيثية.

إن الحق سبحانه وتعالى حين يشرع لا يشرع عن خلاء.. ولكنه خبير بكل ما يصلح النفس الإنسانية(١) ولا يعتقد أحد أنه سبحانه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخذلنا في نظام الحياة، إنه سبحانه خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجاً ليرى الناس جميعاً أن الذي يحيا في رحاب المنهج تأتيه الدنيا وهي راغمة(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إنه سبحانه خبير بما نعمل، كأن الحق يقول إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه شيئاً غير حقيقي، لأن الذي تطلب منه الجزاء هو الرقيب عليك والحسيب، يعلم سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها.

فالذي قتل إنساناً ألقى إليه السلام، لم يقتله لأنه لم يسلم ولكن لأن بينه وبين الآخر إحناً وبغضاء.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١] هو تأكيد على مهمة الضرب في الأرض، وهو سبحانه لم يقل: «إن ضربتم» لأن أسلوب «إن» يكون للشك عادة، فيقال للتلميذ: «إن ذاكرت تنجح»، ولكن لو قلنا: «إذا ذاكرت فسوف تنجح» فـ: «إذا» تعبر عن التأكيد، و: «إن» حرف، ولكن «إذا» اسم للشرط يدل على الزمن، وأي فعل من الأفعال عناصره الحدث وزمن الحدث، فإذا كان الحدث في زمن قبل أن تتكلم، فهو حدث ماضٍ، وإذا كان الحدث يجري ساعة الكلام فهو مضارع، وإذا كان الحدث سيجري من بعد ذلك فهو مستقبل، و«إن» لا تأتي وحدها بشيء من عناصر الحدث، لأنها حرف إلا في قول «إن تفعل» أي: الفعل.. ولكن «إذا» جاءت بعنصر الزمن لأنها ظرف لما يستقبل منه وهي قريبة للتحقيق.

وكأن الحق سبحانه يقول: إن الإيمان الذي أعلنتموه واستقر في قلوبكم

= عليك إلا قليل حتى تخرج العير من الحيرة إلى مكة بغير خفير...». الحديث رواه ابن حبان في صحيحه [٧٣٧٤] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

(١) قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

(٢) قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

يحتاج منكم إلى الضرب في الأرض.. وأنا أمهد لكم أن تعرفوا أن الضرب في الأرض هو أمر بالنسبة للإيمان يجب أن يتحقق.

إن الانسياح بالدعوة الإيمانية أمر واجب ولذلك قلنا إن من شرف أمة سيدنا محمد ﷺ أنها حملت امتداد الرسالة بعد رسول الله ﷺ فلم يأت من بعد رسول الله أنبياء، ولذلك عندما يقول رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[١] لماذا؟ لأن العلماء ورثة الأنبياء[٢]، فهم يحملون المنهج، والله قد تكفل بحفظ المنهج: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] فكما أن الرسول سيشهد أنه بلّغ مَن عاصره منهج الله ودعوته، وكذلك مَن عاصره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم بلغوا التابعين من بعدهم، وهكذا، حتى وصلنا الأمر جليًا نقيًا، فسوف يكون مطلوباً منا أن نبلغ دعوة رسول الله ﷺ للناس[٣]، وبهذا أمرنا رسول الله ﷺ، حتى تتواصل الأجيال ونعيش الرسالة وكأننا في عصرها الأول.

(١) رواه مسلم [١٩٢٠/ ١٧٠] عن ثوبان رضي الله تعالى عنه.

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود [٣٦٤١]، وابن ماجه [٢٢٣]، والدارمي [١/ ١١٠/ ٣٤٢] وابن حبان في صحيحه [٨٨]، وأحمد في المسند [٥/ ١٩٦] وصححه الألباني في صحيح أبو داود. كلهم عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، والعبارة أوردها البخاري في صحيحه في كتاب العلم ضمن عنوان باب العلم قبل القول والعمل.

(٣) روى أبو داود [٣٦٦٠] عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نصر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى بلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه». والترمذي [٢٢٥٦]، وابن ماجه [٢٣٠]، وأحمد في المسند [٥/ ١٨٣]، وابن حبان في صحيحه [٦٧]، [٦٨٠]، وصححه الألباني في صحيح أبو داود. كلهم عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه.
روى البخاري [٣٤٦١] عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «بَلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، والترمذي [٢٦٦٩]، وأحمد في المسند [٢/ ٢٠٢].

obeikandl.com

النهي عن السوء وسيلة النجاة

قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(١) [الأعراف: ١٦٤، ١٦٥].

---

(١) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك وأنكرت واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمُنْكِرَة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من اللَّه، فلا فائدة في نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكِرَة ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقدير: هذا معذرة.

وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك «معذرة إلى ربكم» أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى اللَّه تائبين، فإذا تابوا تاب اللَّه عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون المنكَرَ قبولَ النصيحة ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيُمْدَحُوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيُذَمُّوا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين.

وقال ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها أيلة، فحرم اللَّه عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شُرَّعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يومُ السبت لم يقدروا عليها، فمضى على ذلك ما شاء اللَّه، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرمها اللَّه عليكم يوم سبتكم؟! فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوًّا، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النُّهاة: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وكانوا أشد غضباً للَّه من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب اللَّه نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ =

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: ما ذكرهم المؤمنون به وعظاً.

وقوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ يدل على أن النجاة هنا للفرقة الواعظة ثم جاء العذاب للذين ظلموا وعصوا ولكن ما هو مصير الفرقة الثالثة التي قالت: ما لنا وما لهم؟

إن هذه الفئة التي يئست من طول الوعظ وعدم الاستجابة هم أيضاً من الواعظين لأنهم حين يقولون إن الله مهلك هؤلاء الظالمين ومعذبهم يكونُ هذا وعظاً وتخويفاً لكل الحاضرين مما ينتظرهم من العذاب، وسوء المصير نتيجة لظلمهم.

إذن.. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهم الفئة التي قامت بالدعوة ويئست من استجابة العاصين لربهم، أما الذين ظلموا فأخذهم الله ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: عذاب شديد، لأن كلمة الباء والهمزة والسين تدل على الشدة، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: شدة.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: تعني أن المسألة لم تكن تعنتاً من الله سبحانه وتعالى ولكنها كانت بسبب ظلمهم وفسقهم ومخالفتهم لمنهج الله تعالى.

❁ ❁ ❁

= مُهْلِكُهُمْ﴾ والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة.

وقال عكرمة عن ابن عباس في الآية، قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، فكساني حلةً. وقد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية.

ولله الحمد.

القول الثاني أن الساكتين كانوا مع الهالكين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قراءات كثيرة. ومعناه في قول مجاهد: الشديد.

وفي رواية: أليم. وقال قتادة: موجع. والكل متقارب. والله أعلم.

عمدة التفسير [٥/ ٢٣٧، ٢٣٨]

النهي عن تزكية النفس

يقول الحق عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

والتزكية كما نعرفها هي التطهير والنماء ومنها أخذت كلمة «الزكاة» والتطهير يزيل الأقذار، والنماء يُربي المادة فتنمو.

إذن.. فالتزكية تعني عدم وجود أقذار. ووجود النماء يأتي بعد التطهير، فلا نأتي لقذر ونطالب بنموه لأنه إن نما فهو ينمو بقذارته.

إذن.. لا بدّ له ـ إذا أراد أن ينمو ـ من الطهر. لذلك فإن درء المفسدة مقدمٌ دائماً على جلب المصلحة[1].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ماذا قالوا تزكية لأنفسهم؟

لقد قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] إنهم يقومون بتزكية أنفسهم والإنسان منهي أن يُزكِّيَ نفسه.

والتزكية تقتضي تطهير النفس من العيب وعطاء الإنسان لنفسه نماءً ونظافة فماذا إن كانت التزكية حقًّا، أممنوع أن يزكي الإنسان نفسه؟

إن التزكية التي قاموا بها لأنفسهم كأهل كتاب كانت تزكيةً باطلة فليس حقيقياً أن للّه أبناء.. تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيراً، وليس حقيقياً أن الجنة لن يدخلها إلا هم.

إذن.. الممنوع هو أن يزكي الإنسان نفسه بالباطل لكن إذا كانت التزكية بحق وتطلب في وقت من الأوقات التي لا تحتمل التجربة. مثال ذلك عندما تركب جماعة زورقاً ويكون القائد الذي يجدف، أي: يمسك الشراع، متوسط الموهبة ثم قامت عاصفة شديدة، لا يقوى متوسط الموهبة على القيادة معها، فإذا كان هناك إنسان يجيد فن قيادة الزوارق أثناء العواصف عليه أن يتقدم ويقول لمتوسط

---

(١) قاعدة فقهية مشهورة.

الموهبة: ابتعد عن القيادة فأنا أكثر فهماً منك ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه.. هذه تزكية للنفس وهي مطلوبة لأن الوقت ليس وقت تجربة، ثم هو يزكي نفسه بحق، كما أن العمل الذي هو مقبل عليه سيفضحه إن لم تستقر المسائل على حسن قيادة.

إذن.. هناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق ومن أوضح أمثلة التزكية بحق حينما زكى سيدنا يوسف عليه السلام نفسه لعزيز مصر، وقال له: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] لأن الوقت ليس وقت تجربة وكذلك سيدنا محمد ﷺ عند قسمته لغنائم حُنَيْن حينما سأله أحد المنافقين أن يعدل فقال ﷺ: «ومن يعدل إذا لم أكن أعدل»(١).

❁ ❁ ❁

(١) روى مسلم [١٠٦٣/ ١٤٢] عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما، قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفَهُ من حنين، وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها، يعطي الناس، فقال: يا محمد اعدل. قال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل...». وروى البخاري [٣٦١٠] عن أبي سعيد الخدري بنحوه، وكذلك مسلم [١٠٦٤/ ١٤٣].

Obeikandl.com

الرحمة واللين في النُّصْحِ

قال اللَّه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

مجيء «ما» في قول الحق: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ يدل على أنها أمر لا يمكن أن يدرك كنهه، فدخل تحت الإبهام بـ«ما» لأن الشيء إذا كان لطيفاً دقيقاً فإن الإدراك يقصر عنه.

هذه الآية نزلت عقب أحداث حدثت في غزوة أُحد منها:

الحدث الأول: أن الرسول ﷺ رأى ألا يخرج إلى القوم بل يظل في المدينة فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال في بَدْرٍ أن يخرج إليهم فنزل رسول اللَّه ﷺ على رأيهم ولبس «لأمَتَه» فلما أحسوا بأنهم أشاروا على رسول اللَّه بما يخالفُ ما كان قد بدا منه، تراجعوا وقالوا: يا رسول اللَّه إنْ رأيت ألا تَخرُجَ فلا تخرجْ فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»[1] فما دام قد استعد للحرب فقد انتهت المسألة.

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة [٣/ ٧، ٨].

وروى البيهقي في السنن الكبرى [١٣٢٨٢]، ودلائل النبوة [٣/ ٢٠٤، ٢٠٥] عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: تنفل رسول اللَّه ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر. قال ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما: وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد وذلك أن رسول اللَّه ﷺ لما جاءه المشركون يوم أُحد كان رأيه أن يقيم بالمدينة فيقاتلهم فيها، فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدراً: تخرج بنا يا رسول اللَّه إليهم نقاتلهم بأُحد ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا به حتى لبس أداته ثم ندموا، وقالوا: يا رسول اللَّه أقم فالرأي رأيك، فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم اللَّه بينه وبين عدوه».

قال: وكان مما قال لهم رسول اللَّه ﷺ يومئذٍ قبل أن يلبس الأداة: «إني رأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة وإني مردف كبشاً فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أن سيفي ذا=

الحدث الثاني: تخلف عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين بثلث الجيش.

الحدث الثالث: مخالفة الرماة عن أمره ﷺ وتركوا مواقعهم رغم أنه حذّرهم من ذلك، وقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا أماكنكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا أماكنكم»، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول الله ﷺ[1].

الحدث الرابع: فرارهم حينما قيل: قُتل رسول الله ﷺ.

الحدث الخامس: أنه حين كان يدعوهم ﷺ فروا لا يلوون على شيء.

كل هذه الأحداث كادت تترك في نفسه ﷺ آثاراً فنزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ معنى ذلك أن الله يقول لرسوله أنا طبعتك على رحمة تتسع لكل هذه الهفوات، والرحمة مني، وما دامت الرحمة موهوبة مني فلا بدّ أني جعلت فيها طاقة تتحمل كل مخالفة من أمتك ومن أتباعك ولا تظن يا محمد أنك أُرسلت إلى ملائكة إنما أُرسلت إلى بشر، والبشر خطّاؤون، إن البشر من أهل الأغيار فلهذا اجعل المسألة درساً، وأنا فطرتك على الرحمة وأنت بذاتك طلبت مني كثيراً لأمتك فكلما هموا بك بسوء أقول لك أطبق عليهم الأخشبين فتقول: «بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»[2] وكلما يأتي أمر فأنت يا محمد رحيم بهم وأنا أطلب منك بالرحمة التي أودعتها في قلبك،

= الفقار فل فأولته فلاً فيكم، ورأيت بقراً تذبح فبقر والله خير، فبقر والله خير».

رواه الحاكم في المستدرك [٢/ ١٢٩] وصححه، ووافقه الذهبي.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: استشار رسول الله ﷺ يوم أُحد فقال: إني رأيت فيما يرى النائم كأني في درع حصينة وكأن بقراً تُنحر وتباع ففسرت الدرع: المدينة، والبقر: بقراً والله خير، فلو قاتلتموهم في السكك فرماهم النساء من فوق الحيطان، قالوا: فيدخلون علينا المدينة؟ ما دخلت علينا قط ولكن نخرج إليهم. قال: فشأنكم إذا قال ثم ندموا. قالوا رددنا على رسول الله ﷺ رأيه، فأتوا النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله: رأيك. فقال: «ما كان لنبي أن يلبس لأمته ثم يخلعها حتى يقاتل».

السنن الكبرى للبيهقي [٤/ ٣٨٩/ ٧٦٤٧]

(١) رواه البخاري [٢٨٧٤] وأحمد في المسند [٤/ ٢٩٣] من حديث البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري [٣٢٣١]، ومسلم [١٧٩٥/ ١١١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

بهذه الرحمة لنت لهم يا محمد، وبهذه الرحمة التفوا حولك، التفوا حولك لأدبك الجم، لتواضعك الوفير، لحُسن خلقك، لبسمتك الحانية، لنظرتك المواسية، لتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أي واحد منهم يده في يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو[1]، هذا هو الخلق العالي وكل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل هذه الهفوات وليسعها خلقك، وليسعها حلمك لأنك في دور التربية والتأديب.

والتربية والتأديب لا تقتضي أن تغضب لأي بادرة تبدر منهم وإلا ما كنت مربياً ومؤدباً ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] لماذا؟ لأنك يا محمد تخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية، والذي يُخرِج واحداً عما ألف لا يصح أن يجمَع عليه إخراجه عما اعتاد والأسلوب الخشن الفظ، لأنه في حاجة إلى التودد والرحمة، لا تجمع يا محمد عليهم الأمرين.

ولذلك يقولون في الذي ينصح إنساناً يقولون له: إن النصح ثقيل لأن النصح معناه تجريم الفعل في المنصوح، فتقول للمنصوح وأنت في موقف الناصح: لا تفعل هذا الأمر، وهذا معناه أن ذلك الفعل رديء، وما دمت وأنت ناصح لآخر تجرم له فعلاً فلا تجمع عليه أمرين:

الأول: أنك تقبح فعله.

والثاني: أنك تخرجه مما ألف بأسلوب يكرهه.

ونحن نستعمل هذا الأسلوب في ذوات أنفسنا حين نجد مرضاً يحتاج إلى العلاج بالدواء المر نغلف العلاج المر بطبقة حلوة الطعم بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم وحتى ينزل إلى المعدة فلا تحس بهذه المرارة، لأن الإحساس كله في الفم بالنسبة للمواد المتناولة من خلاله لذلك نغلف الدواء بطبقة ناعمة الملمس وحلوة الطعم غالباً حتى يمر من منطقة الفم والبلعوم التي فيها الإحساس بالتذوق إلى المعدة حيث لا إحساس بالمرارة... فإذا كنا نفعل ذلك في الأمور المادية فلا بدّ أن نفعل مثل ذلك في الأمور المعنوية، لماذا؟ لأن النصح ثقيل، فلا تجعله جدلاً، ولا ترسله جبلاً.

---

(١) تأسّياً بالنبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود [٤٧٩٤] عن أنس رضي الله عنه؛ وفيه: «.. وما رأيت رجلاً أخذ بيده فترك يده، حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده». وحسنه الألباني.

إن الحقائق مُرَّة فاستعيروا لها خِفة البيان، إن خفة البيان هي التي تؤدي الغرض بدون استثارة وبدون إثارة وبلفظ يحمل على التقبل، إن المعنى الذي تريد أن توصِّله واحد ولكن المهم هو اختيار الأسلوب.. مثال ذلك، أن رجلاً رأى رؤيا تتلخص في أن أسنانه كلها وقعت، فجاء لمفسر الأحلام وقص عليه ما رأى فقال له المفسر: أن أهلَك جميعاً يموتون، لقد ألقى في وجهه بقدر هائل من الألم البالغ باختيار هذه الكلمات التي تعبر بخشونة عن معنى ما.

ثم ذهب نفس الرجل إلى مفسرِ أحلام آخر، فقال المفسرُ: ستكون أطول أهل بيتك عمراً. لقد اختار المفسر الثاني أسلوباً راقياً في نقل الحقيقة الواحدة فما دام صاحب الرؤيا هو أطولُ أهل بيته عمراً فمعنى ذلك أنهم سيموتون قبله. إنه معنى واحد ولكن بأسلوبين مختلفين.

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

إذن.. فبالرحمة لنت لهم، يا رسول اللَّه، وبلين القلب اتبعوك وَأَلِفُوك وأحبوك، وعندما نقف عند كلمة: ﴿فَظًّا﴾ فإننا نجد أن الفظ هو ماء الكرش فالإبل مجهزة بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى أن تشربَ من الماء ما تحتاج إليه لمدة طويلة، وتخزِّنَ من هذا الماء في كرشها، حتى عندما تعطش ولا تجد ماءً فإنها تأخذُ من هذا الماء المخزون ليرويَها، ونحن نعرفُ أنه في إحدى الغزوات ذبح المقاتلون بعضاً من الإبل ليأخذوا الماء من كرشها.

ومياه الكرش هذه عادة ما تكون: غير جيدة الطعم، وآسنة قليلاً، وشرب مثل هذا النوع من الماء يولد غضاضة في النفس لذلك سمي بالفظاظة لخشونة هذا النوع من المياه، وأطلق العرب كلمة فظاظة على خشونة القول، وغلظ القلب هو الذي تنشأ منه خشونة الألفاظ.

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ إن هذا القول مقدمة توضح للرسول الكريم ﷺ ما أراه اللَّه له وكأن الحق يقول: إنها الرحمة التي طُبعت عليها مِنِّي وظهر أثرُ ذلك في إقبالهم عليك وحبِّهم لك، لأنك لو كنتَ على نقيضِ ذلك لما وجدتَ أحداً حولك.. إذن فالشواهدُ تثبتُ أن هذه الرحمةَ وهذا اللينَ طبعَهُ الحقُّ تبارك وتعالى في خلْقِ رسول اللَّه ﷺ، وفطره عليه[1].

---

(١) ولقد امتدحه رب العزة سبحانه في القرآن العظيم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. ووصفه سبحانه وتعالى بأنه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الصحبة بالمعروف لغير المؤمن

بعض المستشرقين حاولوا جاهدين أن يعثُروا على ثغرةٍ ينفذُون منها ليفرّقُوا بين المسلمين ودينهم، وأن يروجوا لزعمهم الباطل بأن هناك تعارضاً بين آيات الكتاب الكريم. وارتدى بعضهم مُسوح العلم المحايد، وامتلأت قلوبُهم بسوءِ النية، وغابَ عن عقولِهم حسنُ الإدراك فقالوا: إن بعض الآيات القرآنية تتعارضُ، والسبب الذي يجعل المسلمين يغفلون عن ذلك التعارض بزعمهم هو أنهم ينظرون إلى القرآن بقداسة، ولولا هذه القداسة لأمكنهم اكتشافُ التعارضِ في آياتِ القرآن!!

هؤلاء المستشرقون لمّا قرأوا الآية الكريمة التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥] حاولوا بسوء القصد والنية أن يوهموا أذنابهم أن هناك تعارضاً بينها وبين قول الحق سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إن بعض المستشرقين يحاولون أن يُروجوا لفكرة التعارض بين قول الحق: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ من سورة لقمان وبين قوله: ﴿يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ طعناً في هذا الدين وحسداً من عند أنفسهم.

إن الفهم الصحيح لقول الحق سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ هو أن اللّه تعالى يأمر الابن أن يصاحب والديه بالمعروف، ولا يطيعهما في دعوتهما له بالشرك باللّه، بل يأمره أن يتبع طريق التوحيد والإخلاص، وأن مرجعهم جميعاً هو وهما إلى اللّه تعالى بما فعلوا من خير أو شر، وأن اللّه سبحانه هو الذي سيجزي كل إنسان جزاءَ عملِهِ.

ومعلوم أن الصحبة بالمعروف سواء مع الوالدين أو غيرهما أمرٌ مختلفٌ عن الودِّ بالقلب؛ فالمعروف فعل الجوارح، أما الود فهو فعل القلب.

إن الصحبةَ بالمعروف أمرٌ يصنعُه الإنسانُ مع من يحبُّ ومع مَن لا يحب، أما الودّ فلا يصنعه الإنسانُ إلا مع من يُحِب، واقرأ قول الحق: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة توضح أن القوم المؤمنين باللَّه واليوم الآخر ليس بينهم وبين من يعادي اللَّه ورسوله ويصد عن دينه مودة قلبية، ولا موالاة، ولا نصرة، حتى ولو كانوا من آبائهم أو إخوانهم أو أبنائهم أو أقاربهم، وهذا لا يمنع من معاملتهم بالمعروف، وإعطاء كل ذي حق حقه، فهذا شيء، والنصرة في الدين والمولاة في اللَّه تعالى شيء آخر(١).

إن المؤمنين لا يوالون من حادّ اللَّه ورسوله؛ لأن الحق ثبَّتَ قلوبَهم على الإيمان وأيَّدهم بقوةٍ منه وجعل لهم جزاء ذلك جناتٍ لا ينقطعُ فيها النعيمُ عنهم لأنهم أحبُّوا اللَّهَ فأحبَّهم اللَّه، وهكذا نفهمُ الفرقَ بين «الصحبة بالمعروف» وبين «الود».

ثم إن الصحبة بالمعروف أمرٌ لا يتطلبُ الحب، ولكن يتطلب المعايشة، وإن المؤمن بسلوكه مع مَن حوله قدوةٌ تنيرُ قلوبَ الضالين إلى الهداية. فإن آمَن الضالُّ فللمؤمن ثوابُ إيمانه، وإن لم يؤمنْ الضالُّ فللمؤمن الثوابُ أيضاً لأنه عايشَ الضالَّ دون أن يتأثر بدعوةِ الضلال، أو أن يحيد عن منهج الحق سبحانه حتى ولو جاءته هذه الدعوة من أبيه أو أمه أو أقاربه. إن المؤمن لا يساوم على إيمانه، لذا فلا مودة بينه وبين من عادى اللَّه ورسوله، وأوضح الأمثلة على ذلك يوم بدر حينما قال عبد الرحمن بن أبي بكر رضي اللَّه تعالى عنهما لأبيه بعد أن أسلم: «لقد رأيتك يا أبي يوم بدرٍ ولكنِّي لويتُ عُنقِي عنك، فقال له سيدنا أبو بكر رضي اللَّه تعالى عنه: واللَّهِ لو رأيتُك لقتلتُك»(٢).

---

(١) قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

(٢) رواه الحاكم في المستدرك [٣/ ٤٧٥] ولفظه: قال عبد الرحمن بن أبي بكر لأبي بكر رضي اللَّه تعالى عنهما: قد رأيتك يوم أُحد فصفحت عنك، فقال أبو بكر: لكني لو رأيتك لم أصفح عنك.

والذين يبحثون في فلسفة الدين يقولون إن الاثنين على حَقٍّ لأنَّ عبد الرحمن قارن بين أبيه والأصنام، أما سيدُنا أبو بكر فقارنَ بين ابنه وربه، فوجد أن اللَّه تعالى أعز عليه من ابنه، والاثنان منطقيان.

وكذلك حينما رأى سيدنا مصعب بن عُمير أخاه أسيراً في يد أحد الصحابة فقال للصحابي: اشدد على أسيرك فأمه غنية وستفديه بمال كثير.

obeikandl.com

الرضا بالقضاء يرفعه

لا يُرفع قضاء من اللَّه على خلقه إلا بعد أن يستسلِمَ الخلقُ للقضاء، والذين يُطيلون أمدَ القضاء على أنفسهم هم الذين لا يرضوْن به، ولا يوجد إنسانٌ أُجري عليه قضاء كمرضٍ مثلاً فرضِيَ به واعتبرَ ذلك ابتلاءً من اللَّه تعالى، فصبر لذلك واحتسب، إلا ورفع اللَّه تعالى عنه المرضَ، بل وجزاه خير الجزاء على صبره واحتسابه.. كيف؟

إن الإنسانَ بالصحة يكونُ مع نعمة اللَّه، ولكنهُ بالمرض يكونُ مع اللَّهِ تعالى. فقد روى أبو هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال:

قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه عزَّ وجلَّ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني.

قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعُدْه؟ أما علمت أنك لوْ عُدْتَه لوجدتني عنده؟»[(١)].

مَنْ إذن يجرُؤ على الزُّهدِ في معيَّة اللَّه؟ إن المريض عندما يعرف أنه في مرضه الذي يتأوه منه هو في معية اللَّه لاستحيا أن يقول: «آه» ولرغب إلى ربه ومولاه وحمده، وسأله العفو والعافية.

ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له، ولو أنه رضي لرفع القضاء.

إذن.. لا يرفع قضاء حتى تكون نفس من ابتُلِيَ به راضية، وما دام عدم الرضا موجوداً فالناسُ هم الذين يطيلون على أنفسهم أمَد القضاء لأنهم لا يرضون به، فإذا قال لك إنسانٌ إنه راضٍ بقضاءِ اللَّه وأن القضاء لم يُرفعْ عنه، فاعلم أنه يقولُ ذلك بلسَانِه ولا يرضَى قلبُه بذلك وجاء في الحديث: «ليس لابن آدم إلا ما قُدر له»[(٢)].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه [٧٣٩٩] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم [٢٥٦٩/ ٤٣] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه.

obeikandl.com

ثمرة الرضا بقضاء اللَّه

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

ما هو الضر أولاً؟ إن الضر هو ما يصيب الإنسان ويخرجه عن استقامة حياته وحاله. فالإنسان عندما يعيش بغير شكوى أو مرض ويشعر بتمام العافية فهو يعرف أنه صحيح البدن، لكن ساعة يؤلمه عضو من أعضاء جسمه فهو يضع يده عليه ويشكو ويفكر في الذهاب إلى الطبيب.

إذن.. فاستقامة الصحة بالنسبة للإنسان هي رتابة عمل كل عضو فيه بصورة لا تلفته إلى شيء. ويلفت الحق أصحاب النعم إلى شكره سبحانه، فعندما تسير في الشارع وترى إنساناً فقد ساقه فأنت تقول: «الحمد للَّه الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه»[(١)] لأنك سليم الساقين وهكذا تعرف أنك لا تدرك نعمة اللَّه في بعضٍ منك إلا إذا رأيتَها مفقودةً في سواك.. وهكذا تعلم أن من الآلام والآفات منبهات للنعم.

وأيضاً نجد أن منغصات الحياة قد تصيب الإنسان حين يتصوَّر أنه لم يأخذْ حظه من نِعمَ اللَّه، فيقول لحظتها: يا مفرج الكروب يا رب، ولذلك حين نجد الإنسان يقول: «يا رب»، نعرف أنه يفزع إلى اللَّه، ولذلك قالها اللَّه عن الإنسان: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢] وذلك يعني أن الإنسان إذا ما أصابه مكروه فهو يلجأ إلى اللَّه، ولا يملُّ دعاء اللَّه على كل حال سواء أكان الإنسان مضطجعاً، أو قاعداً، أو قائماً. وعندما يكشف الحق عنه الضر قد ينصرف عن الدعاء ويعيش رتابة النعمة، وينسى المنعم سبحانه، وكأنه لم يدْعُ اللَّه سبحانه

---

(١) روى ابن ماجه [٣٨٩٢] والترمذي [٣٤٣١] عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من فَجِئَه صاحب بلاء فقال: الحمد للَّه الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، عوفي من ذلك البلاء كائناً ما كان»، وقال الألباني: صحيح.

إلى كشف ما به من ضر، وهذا هو سلوك المسرفين على أنفسهم، إن النفس ـ أو الشيطان ـ تزين للعاصي بعدما يكشف اللّه ما به من ضر، أن الذي كشف الضر هو مهارة الطبيب الذي لجأ إليه! غافلاً عن أن مهارة الطبيب هي نعمة من نعم اللّه تعالى؛ أو ينسب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه اللّه من علم أو مال، غافلاً عن أن اللّه سبحانه هو واهب كل شيء، كما فعل قارون الذي ظن أن ماله قد جاءه من تعبه وكدّه غافلاً أن الحق هو مُسبِّب كل الأسباب، ولو كان ذلك كذلك لاستطاع قارون أن يحافظ على ذلك المال بعلمه كما ادعى[١].

إذن.. لولا الضر ما علمنا العافية، فالضر يُلفت الإنسانَ إلى نِعَم الحقّ سبحانه وتعالى في هذه الدنيا وإذا ما رضيَ الإنسانُ وصبرَ فإن اللّه يرفعُ عنه الضرَّ، بل ويثيبه عليه.

والحق سبحانه وتعالى يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر، فها هو سيّدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمرَ بذبح ابنه الوحيد إسماعيل عليه الصلاة والسلام، يأتيه هذا الأمر في رؤيا، ورؤيا الأنبياء حق[٢].. إنّ على إبراهيم أن يذبَح ابنه بنفسِه. وهذا ارتقاء في الابتلاءِ ولم يلتمسْ إبراهيم خليل الرحمن عذراً ليهربَ من ابتلاءِ اللّه له، لم يقلْ إنها مجرد رؤيا وليست وحياً لقد جاءه الأمرُ بأشق تكليف وهو ذبحُ الابن، ونرى عظمةَ النبوةِ في استقبال أوامر الحقّ فيتقبل خليل الرحمن الأمر عن طيب نفس ورضا بالقضاء، فيلهمه اللّهُ أن يُشركَ ابنَه إسماعيلَ في استقبالِ الثوابِ بالرّضا بالقضاءِ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] امتلأَ قلبُ إسماعيل بالرضا بقضاء اللّه ولم ينشغلْ بالحقد على أبيه ولم يقاومْ ولم يدخل في معركة جدلية، بل قال قول المؤمن الواثق بربه الراضي بقضائه المستسلم لأمره: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾. لقد أخذ عليه السلام أمر اللّه بقبولٍ ورضاً.

ولذلك يقولُ الحق سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ

---

(١) إشارة إلى قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(٢) روى الطبري في التفسير عن قتادة في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ قال: رؤيا الأنبياء حق، إذا رأوا في المنام شيئاً فعلوه.

﴿صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٧].

لقد اشترك الإثنان في قبول قضاء اللّه، واستسلم كل منهما للأمر عن طيب خاطر ورضى، أسلمَ إبراهيم كفاعلٍ، وأسلم إسماعيلُ كمنفَعِلٍ، ورأى اللّه تعالى صدق كلٍ منهما في استقبال أمرِ اللّه، وهنا نادى الحقُّ إبراهيمَ عليه السلام: لقد استجبْتَ أنت وإسماعيل إلى القضاءِ، وحسبكُما هذا الامتثالُ ولذلك يجيءُ إليك وإلى ابنِك التخفيفُ وجاءَ النداء بذبحٍ عظيم القدرِ جعله اللّه منسكاً من مناسك ذرية إبراهيم والذين آمنوا إلى يوم الدين، ليس هذا فقط، بل ومكافأة عظيمة، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] لقد رفع اللّهُ عن إبراهيم القضاءَ وأعطاهُ الخير وهو ولدٌ آخر.

إذن.. فنحن الذين نطيل على أنفسنا أمدَ القضاءِ بعدَم قبولنا له، لكن لو رضي الإنسان بقضاء اللّه واستقبَلهُ بالحمد، لرفع عنه البلاء، وجزاه اللّه عن صبره ورضاه خير الجزاء من مُجْرِيهِ قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

إن اللّه يعلم أن أيًا من عباده لا يتحمل قوة الحق في الضر ولذلك يكون الضر في هذه الحالة مجرد مس، وكذلك الخير إنما ينالُ الإنسان مسَّ الخيرِ فقط فكلُّ الخيرِ مُدَّخَرٌ في الآخرة. لأن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يزول الإنسان عنه.

إن الإنسان في الدنيا مهما ارتقى في الابتكار والاختراع فهو لن يصلَ إلى كلِّ الخيرِ الذي يُوجَدُ في الآخرة؛ ذلك أن خيرَ الدنيا يحتاجُ إلى تحضيرٍ وجهدٍ من البشرِ، أما الخيرُ في الآخِرة فهو على قدر المعْطِي الأعظَم وهو اللّه سبحانه وتعالى.

إذن.. فكلُّ خيرٍ في الدنيا هو مجردُ مسّ خيرٍ لأن الخير الذي يناسب جمال وكمال اللّه لا يزول ولا يحول ولا يتغير وهو مُدَّخَر للآخِرة. وعلينا أن نعلم أن كاشفَ الضرِّ هو اللّهِ لا أحد غيره فالمريضُ لا يشفَى بمجردِ الذهابِ إلى الطبيبِ لكنَّ الطبيبَ يعالِجُ بالمهارَة الموهوبةِ له من اللّهِ والذي يُشْفِي هو اللّهُ.

قال تعالى حكاية عن الخليل إبراهيم أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾،

إن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الداء وخلق الدواء وجعل الأطباء مجرد جسور إلى الدواء ومن ثم إلى الشفاء لينعم على بعض عباده ببعض من المواهب التي خلقها اللَّه في كونه ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً أن الشفاء جاءَ معه لا بِهِ ويعترفُ أن اللَّهَ أكرمهُ بأن جعلَ الشفاءَ يأتي على ميعادٍ من علاجه.

إذن.. فالحق هو الكاشف الحقيقي للضر وهو القادر على أن يعطيك الخير[١].

(١) روى مسلم [٢٢٠٤/٦٩] عن جابر رضي اللَّه تعالى عنه قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «لكل داء دواء فإذا أُصِيبَ دواءُ الداءِ برأ بإذن اللَّه عزّ وجلّ».
وروى أبو داود [٣٨٥٥] عن أسامة بن شريك رضي اللَّه تعالى عنه قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «تداووا فإن اللَّه عزّ وجلّ لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد الهرم». وصححه الألباني.

obeikandl.com

التكامل والتعاضد
سُنة اللَّه تعالى في خلقه

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]
واللفتة هنا هي أن اللَّه لا يريدنا أن نكون متساوين في المواهب ولكنه يريدنا أن نكون متكاملين فيها لماذا؟ لأنه إذا كان الناس كلهم صورة مكررة لفسدت الأرض فلو أننا جميعاً أطباء أو قضاة أو مهندسون أو فلاحون، ما استقام الكون ولكنه رفع بعضنا فوق بعض، ومعنى ذلك أن بعضنا مرفوع وبعضنا مرفُوعٌ عليه. أي: أن كل واحد فينا مرفوعٌ من جهة ومرفوعٌ عليه من جهة أخرى حتى يتكاتف الناس لتكتمل الحياة، والحياة لا تكتمل تفضلةً ولكنها لا بدّ أن تكتمل بالمصالح المرتبطة بعضها بالبعض تفضل حاجة، فلو أننا جميعاً مثلاً من خريجي الجامعة فلن نجد إنساناً يقبل أن ينظف الشارع، أو يحمل القمامة أو يقوم بإصلاح المجاري ولكن كون المسألة مرتبطةً ببعضها البعض فإن هذه المسائل تأتي اضطراراً، وهذه هي حكمة الخالق سبحانه للكون، ولكننا لا نفهمها في كثير من الأحيان!

ولذلك فإننا مثلاً نقول على الذي لم يكمل إلا تعليمه الابتدائي، أو الذي لم يأخذ حظاً من التعليم، إنه فشل في حياته ولم نلتفت إلى أن هناك مهمةً في الكون لا تحتاج إلا لحامل الابتدائية، فهذا الإنسان الذي وصل إلى التعليم الإبتدائي مُعَدٌّ لمهمة في الكون لا يقومُ بها غيرُه؛ والإنسان إذا عضَّهُ الجوعُ أو حاجة عياله فإنه يعمل أي عمل فإذا رضِيَ بقضاء اللَّه تعالى وقدره فتحَ اللَّه تعالى عليه فوصل رزقه من عمله إلى أضعاف رزق ذلك الذي تخرج في الجامعة، ليس هذا فقط بل يبارك اللَّه تعالى له فيه، ولذلك أقول دائماً «قيمة كل امرئ ما يُحسنه» وما دام يحسن عمله يكون إنساناً ناجحاً في الكون ولو لم يُرضِ هذا النجاحُ بعضَ الناسِ. وهنا تظهر الحكمةُ في أن بعضنا مرفوع على بعض، فكل إنسان إذا نظرت إليه وجدتَه مرفوعاً في شيء ومرفوعاً عليه في شيء آخر، الشيء الذي هو مرفوع فيه يستفيد منه الكون كله، والشيء الذي هو مرفوع عليه يستفيد هو من غيره، وهكذا

تتكامل المواهب وتعطي الكون الكمال والجمال الذي يجعلنا جميعاً نستفيد من كل المواهب فينا، فالمهندس الناجحُ المرفوعُ على الناس في فنِّ الهندسة يبني لنا جميعاً العمارات فنستفيد كلنا منه، من يملك ومن يسكن، وإذا احتاج هذا المهندس إلى بدلةٍ أنيقةٍ يلبسُها فإنهُ يذهبُ إلى ذلك الإنسانِ الذي رفعَه اللَّهُ في فنِّ التفصيل فيستفيدُ من موهبته في هذا الفن ليحصلَ هو وكل الناس على ملابسَ أنيقة، فإذا احتجنا إلى أثاث فإننا جميعاً نذهب إلى ذلك الإنسان الذي رفعه اللَّه في فن النجارة وصناعة الأثاث.

وهكذا شاءت حكمة الخالق سبحانه أن يكون كُلٌّ منا مرفوعاً في شيء ومرفوعاً عليه في شيء آخر، حتى يستفيد الكون كله من مواهب البشر جميعاً ويصبح كل واحد منا قادراً على أن يستفيد من كل المواهب التي خلقها اللَّه في الكون.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

إذن.. فالمسألة فيها ابتلاء واختبار، والاختبار هنا ليس اختبار علم فاللَّه سبحانه وتعالى لا يغيب عن علمه شيء، ولكنه اختبار لنكون شهداء على أنفسنا تماماً كالاختبارات التي تتم في الدنيا، فالامتحانات التي تعقد في كل أنحاء الدنيا ليس هدفها أن يتعلم الأستاذ من التلميذ، فالأستاذ هو الذي أعطى تلاميذه العلم فلماذا يختبرهم؟ إنه يختبرهم حتى يكون كل واحد منهم شهيداً على نفسه، لأنه لو لم تُعقد هذه الامتحانات لادّعى كل تلميذ ـ سواء كان فاشلاً أو فالحاً ـ أنه يستحق النجاح مع مرتبة الشرف.

إذن.. الحكمة من الامتحانات أن يكون كل إنسان شهيداً على نفسه فإذا ادعى أنه يعلم وأنه ذاكر يأتون له بورقة إجابته فلا يستطيع المجادلة لأنه في هذه الحالة تكون أمامه القرائن والأدلة التي تجعله عاجزاً عن أن يجادل بالباطل، ولذلك فإن ابتلاء اللَّه لنا يكون اختبار إقرار علينا، وليس اختبار علم اللَّه ليقول اللَّه سبحانه وتعالى للإنسان لقد خلقتك وأعطيتك هذه الموهبة وميزتك بها عن كل خلقي لتتكاملوا وتتعاضدوا، فارضَ بما قسمته لك تكن أغنى الناس[1].

---

(١) روى الترمذي [٢٣٠٥] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال؛ قال رسول اللَّه ﷺ: «من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن»؟ فقال أبو هريرة: =

obeikandl.com

= فقلت: أنا يا رسول اللّه، فأخذ بيدي فعد خمساً، وقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم اللّه لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب». وقال الألباني: حسن.

التوكل على اللَّه وحده

قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [الرعد: ٣٠] الإنسان لا يسلِّم نفسه إلا لمن يثق في أنه أمين عليه ثم إنه لا يكتفي بأن يكون أميناً فقط! فقد يكون أميناً وضعيفاً لا يقدر على الحماية، فلا بدّ أن يكون أميناً وقوياً، فإذا كان الإنسان يسلم قيادة نفسه إلى واحد يرى أنه أحكم منه، يعني: أنه شهد لهذا الواحد بأنه أمين عليه، وأحكم منه، وأقدر على تنفيذ مطلوبه؛ وإلا لو كان هذا الإنسان قويًّا بذاته لما وكَّلَ أحداً.

والرسول ﷺ في دعوته لصناديد قريش ومواجهته لهم، لقي منهم عنتاً شديداً وخصومة فاجرة، فاتهموه ﷺ بأشياء هم أول من يعلم أنها ليست فيه، فاحتكم إلى اللَّه وفوض أمره إليه، وحول الموقف كله بينهم وبينه إلى اللَّه تعالى، وقال: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذه شهادة منه ﷺ بأن اللَّه تبارك وتعالى هو القوي، الأمين، والحكيم، ولم يقل توكلت عليه لماذا؟ لأن هناك فرقاً بين: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وتوكلت عليه.

توكلت عليه من الممكن أن نعطف أيضاً فنقول: وعلى فلان وعلى فلان إنما: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني توكلت عليه وحده لا أحد غيره، ولذلك لا نقول: نعبدك يا اللَّه، ولكننا نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] يعني: نحصر العبادة فيه سبحانه فلا تتعداه إلى غيره، ولو أنها أُخرت لجاز أن يعطف عليها.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا توجد مشاكسة، هو إله واحد نأخذ الأمر منه وحده، ونتوكل عليه وحده، ولذلك عندما تكون هناك إدارة وفيها رئيس وهذا الرئيس أعطى هذا صلاحية وآخر صلاحية فتقول أنا ليس لي إلا رئيس واحد لا آخذ أوامر إلا منه، وهذا معناه أنني لا آخذ أوامري من أحد غير رئيس العمل فهذا المثل يفسر معنى الآية الكريمة: بأنه هو إله واحد لا إله غيره آخذ منه أوامري وحده ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

الاحتساب

يقول الحق جل جلاله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: إن انصرفوا عنك ورفضوا الاستماع إلى منهج الله فإياك أن تعتقد أن الله ينصرك بمن اتبعك من المؤمنين، بل اعلم أنه يكفيك أن الله معك، فإن أعرضوا عنك فقل أمام الناس جميعاً: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: يكفيني الله.

الحق سبحانه وتعالى لم يطلب من رسوله ﷺ أن يقول هذا في نفسه، ولكنه طلب منه أن يعلنها أمامهم جميعاً، لماذا؟ ليؤكد للدنيا كلها أنه لو تخلى الخلق جميعاً عن محمد عليه الصلاة والسلام فإن رب محمد قادر على أن ينصره دون مؤازرة من الخلق، والإعلان هنا دليل قدرة الحق سبحانه وتعالى، هذه القدرة التي تجعل محمداً عليه الصلاة والسلام يقولها بأعلى صوته: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ لأنه لا إله إلا الله، ولا يوجد في كونه سبحانه قوة ولا قدرة تعلو قوته وقدرته تبارك وتعالى.

إذن.. فلا إله إلا الله أثبتت الألوهية لله، ونفت الألوهية عن غير الله، فالتوحيد إيجاب وسلب، إيجاب في أن الله وحده هو الإله، وسلب في أنه لا إله غيره، تماماً كما بين قطبي الكهرباء إذا لم يلتق السالب والموجب لا يسرى التيار، ونحن لا بدّ لنا أن نسلب الألوهية عن غير الله ثم نثبتها لله تبارك وتعالى.

وقول الحق تعالى: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ١٢٩] هو نفي للألوهية عن غير الله وإثباتها لله سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن الناس ثلاثة أقسام:

قسم: كافر يُنكر وجود الله سبحانه وتعالى.

وقسم: مُشرك ينسب الألوهية لله ولغير الله سبحانه وتعالى.

وقسم: مؤمن بأنه لا إله إلا الله.

إذن.. فالكفار يُنكرون وجود الألوهية، والمشركون يثبتونها لله ولغير الله، والمؤمنون يؤكدون أنه لا إله إلا الله، فكأنك حين تقول: لا إله إلا هو، تكون قد أثبتَّ الألوهية لله وحده، وأثبت أنه لا شريك له، ونفيت كل أنواع الكفر والشرك بالله تعالى.

obeikandl.com

معية اللَّه ثمرة
من ثمرات الاحتساب والتوكل

من ثمرات قول المسلم: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، معية اللَّه تعالى، ومعية اللَّه جل جلاله تتطلب مرحلتين:

المرحلة الأولى: أن نأخذ بالأسباب التي خلقها اللَّه في الكون وأرشد خلقه إلى الأخذ بها.

المرحلة الثانية: إذا خذلتك الأسباب فاتجه إلى اللَّه مُسبِّب الأسباب، ولذلك قالوا: إذا احتاج الناس إلى الماء فعليهم أن يذهبوا إلى البئر أولاً، فإذا وجدوها قد جفت ذهبوا إلى بئر أعمق منها، فإذا وجدوها أيضاً قد جفت رفعوا أيديهم إلى السماء طالبين من اللَّه المطر(١).

---

(١) قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١].
وعن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه تعالى عنه قال: أتت النبي ﷺ بواكٍ، فقال: «اللَّهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً مريعاً(١)، نافعاً غير ضارٍّ، عاجلاً غير آجل»(٢). فأطبقت عليهم السماء.
وعن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها قالت: شكا الناس إلى رسول اللَّه ﷺ قحوط المطر، فأمر بمِنْبَرٍ، فوُضِعَ له في المصلى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، فخرج رسول اللَّه ﷺ حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر، فكبر، وحمد اللَّه عزّ وجلّ، ثم قال: «إنكم شَكَوتُم جدب دياركم، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم اللَّه سبحانه وتعالى أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم».
ثم قال ﷺ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ =

---

(١) أي: هنيئاً خصباً.
(٢) رواه أبو داود [١١٦٩]، والحاكم في المستدرك [١/ ٣٢٧]، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وقال الألباني: صحيح.

obeikandl.com

ولذلك لا بدّ أولاً أن تستنفد أسباب اللّه الممدودة إليك، فلا تردَّ يد اللّه الممدودة إليك بأسبابه وتتجه إلى المسبِّب إلا في حالة فشل الأسباب واضطرارك، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

والمضطر هو الذي استنفد أسباب اللّه في الأرض، ولم يبق له إلا التوجه إلى اللّه مباشرة، ضارعاً إليه، مستنجداً به، لذلك تجد بعض الناس يتعجل ويقول إنه دعا اللّه ولم يجبه، نقول له: إنك لم تستنفد الأسباب. ويظن الناس أن الأسباب وحدها تعطي، وهذا أحد أهم أسباب تأخر الإجابة، لذلك.. لا بدّ لكل إنسان أن يكون اللّه في باله في كل عمل، ويعلم أنه لولا توفيقه له ما رشد، ولتعطلت الأسباب، ولم تجبه ولا بدّ أن يكون قائماً بأمره مخلصاً له الدين، ولا يعتقد أن الأسباب تعطي بذاتها بل بقدرة اللّه، ولذلك قد يأخذ الإنسان بالأسباب كلها ثم يأتي ما يُفسِد له النتيجة مثل: آفة زراعية أو عاصفة، أو أمطار غزيرة، فتمنع الأسباب من العطاء، ابتلاء من اللّه تعالى، وليلفتك إلى أن الأسباب وحدها لا تعطي، وحتى لا تغتر وتقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

فأنت إذن.. مع أسباب اللّه تعالى أولاً تأخذ بها، فإذا ما استنفدتها لجأت إلى المسبب سبحانه مباشرة، وإياك أن تدعو اللّه مثلاً إن كنت تلميذاً في مدرسة أن يوفقك للإجابة الصحيحة، وأنت لا تذاكر ولا تفتح كتاباً، ولكن ذاكر وادعُ بالنجاح

= [الفاتحة: ٢ ـ ٤] لا إله إلا اللّه، يفعل ما يُريد، اللّهم أنت اللّه لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغاً إلى حين. ثم رفع يديه، فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حوَّل إلى الناس ظهره، وقلب ـ أو حَوَّلَ ـ رداءه وهو رافع يديه ثم أقبل على الناس، فنزل، فصلى ركعتين فأنشأ اللّه عزّ وجلّ سحابة فرعدت، وبرقت، ثم أمطرت بإذن اللّه تعالى، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سُرعَتَهُم إلى الكَنّ؛ ضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «أشهد أن اللّه على كل شيء قدير، وأني عبد اللّه ورسوله»(١).

وعن عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه تعالى عنه قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا استسقى قال: «اللّهم اسقِ عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك وأحيِ بلدك الميت»(٢).

---

(١) رواه أبو داود [١١٧٣]، وقال هذا حديث غريب، إسناده جيد. والحاكم في المستدرك [١/ ٣٢٨] وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: حسن.

(٢) رواه أبو داود [١١٧٦]. وقال الألباني: حسن.

وبذلك يكون لك أكثر من رصيد في الحياة، فإذا لم تعطك الأسباب، كان لك سند من اللَّه تعالى.

والتوكل عمل القلوب وليس عمل الجوارح، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل، على أننا لا بدّ أن نلاحظ أن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ إنك حين تتوكل على اللَّه إنما تتوكل على ربك ورب هذا الكون الذي سخر لك كل شيء فيه، حتى الأشياء التي فوق قدرتك كالشمس والمطر والرياح إلى آخر ذلك من قوى الكون المسخرة لخدمتك، فاللَّه تعالى خلق لك ما تزرعه وما تركبه وما تأكله وما تشربه وجعل هذا الكون كله يعمل من أجلك ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من عبده المؤمن أن يقول دائماً مخلصاً من قلبه ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وأن يطابق هذا القول العمل فلا يقول ذلك بلسانه وينصرف بجوارحه لعمل أو لشيء آخر، أو يقول بلسانه ويهمل الأخذ بالأسباب التي سخرها له رب العزة سبحانه وتعالى.

obeikandl.com

إخلاص التوكل

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

أي: لا أريد إلا الصلاح؛ صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتي والله لا يكلف نفساً إلا وسعها وقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقاً بين العمل وبين أن توفق في العمل، قد تشغل جوارحك بأي عمل ليست فيه نية خالصة لله سبحانه وتعالى، وفي هذه الحالة لا يأتيك التوفيق لأن الأعمال بالنيات، ولا بدّ وأن تكون نيتك خالصة لله تعالى(١).

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ حين تسمع إنساناً يقول على الله توكلت، قل له أتوكلت على الله وحده؟ فإن قال لك وعليك أيضاً فاعلم أن مسألته لن تقضى(٢).

أما إذا توكل على الله وحده فلا بدّ أن يقضي الله له حاجته، ذلك مثل الرجل الذي يدخل المسجد لأنه يريد أن يتكلم مع فلان الذي دخل إلى المسجد في أمر من أمور الدنيا وساعة يحدث هذا يجب أن تقول له: إن شاء الله إن الله لن يقضي هذا الأمر، تماماً كالذي جاء يبحث عن ناقته التي ضلت، جاء يبحث عنها

---

(١) روى البخاري [١] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(٢) لأنه في هذه الحالة قد جعل نداً لله تعالى، وهو ما نهى عنه رسول الله ﷺ فيما يرويه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عند أحمد في المسند [١/ ٢١٤] أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال له النبي ﷺ: «أجعلتني والله عدلاً؟ بل ما شاء الله وحده».

وصححه الأرناؤوط.

وفي تاريخ بغداد [٨/ ١٠٤/ ٤٢١٨] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال؛ قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده».

وينادي في المسجد، فقال له رسول الله ﷺ: «لا ردَّ الله عليك ضالتك»[1] والذي جاء لعقد صفقة في المسجد قال له النبي عليه الصلاة والسلام: «لا أربح الله تجارتك»[2] يؤخذ من ذلك: ألا نسحب الدنيا معنا داخل المسجد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع إليه فالله سبحانه وتعالى هو البداية والنهاية بالنسبة لنا جميعاً، وما دامت المسألة أن التوفيق بيد الله سبحانه وعليه التوكل وإليه المصير فأنت غير محتاج إلى غير الله جل جلاله، فأخلص النية، وأصدق القول والعمل، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

❁ ❁ ❁

(١) روى مسلم [٥٦٨/٧٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا».

(٢) روى الترمذي [١٣٢١] وصححه الألباني، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة فقولوا: لا ردّ الله عليك».
قال: أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن غريب، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم؛ كرهوا البيع والشراء في المسجد. وهو قول أحمد وإسحاق، وقد رخص فيه بعض أهل العلم في البيع والشراء.

obeikandl.com

رذيلة البخل

قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧] لقد جاء بالمقابل للأريحية والجود وبسط اليد وهو البخل، والبخل هو: المشقة في الإعطاء فعندما يأتي الإنسان ليعطي شيئاً فهو يجد في العطاء مشقة، أما المؤمن فهو مرزوق ببسطة الكف والأريحية، أي: أنه يرتاح للمعروف.

والبخل الذي هو مشقة في العطاء قد يتعدى حتى يضن هذا البخيل بالشيء الذي لا يضر بذله ولا ينفع منعه، ولكنها النفس البخيلة التي لا ترغب في العطاء حتى ولو في ذات نفسه، وها هو الشاعر يصور البخيل وهو يبخل على نفسه وإذا كان إنسان ما قد بخل على نفسه فكيف يجود على غيره. إن الشاعر يذم واحداً اسمه عيسى وهو بخيل حتى على نفسه فيما لا يضر بذله ولا ينفع منعه فيقول:

يُقَتِّرُ عيسى على نفسِهِ ... وليسَ بِبَاقٍ وَلَا خَالِدِ
فَلو يستطيعُ لِتقْتِيرِهِ ... تَنَفَّسَ مَن مِنخَرٍ واحدِ

إنه بخيل إلى الدرجة التي يضنُّ بها على نفسه، فلا يتنفسُ بفتحتي أنفه، ولكنه لو استطاع أن يتنفس بفتحة أنف واحدة لمصلحة ما، أو فائدة تعود عليه، لفعل لو استطاع.

وهناك شاعر آخر صور البخيل صورة تمنع عن هذا البخيل الأريحية والكرم فيقول:

لو أَنْ بِبَيْتِكَ يا ٱبنَ عَمِّ مُحَمَّد ... إِبرٌ يَضِيقُ بها فَضَاء المنزلِ
وأتاكَ يوسُفُ يستعيرُك إِبرةً ... لِيَخِيطَ قدَّ قَمِيصِهِ لم تَفْعلِ

إنه بخيل حتى بإبرة واحدة لو طلبها منه سيدنا يوسف عليه السلام الذي قُدَّ قميصه من دبر، أثناء محاولة امرأة عزيز مصر مراودته عن نفسها، فلن يعطيه.

إذن.. البخل هو أن يضيق الإنسان بالإعطاء، حتى أنه يضيق بعطاء شيء

لا يضره أن يبذله ولا ينفعه أن يمنعه، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى عن البخلاء: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠] إن الحق سبحانه يتوعد البخيل بطوق مما بخل به يطوق به عنقه فلو أن البخيل قد بذل قليلاً لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوم القيامة، لكن البخيل لما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق ثقلاً.

لقد قال الحق أيضاً عن الذين يكنزون الذهب والفضة: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

إذن.. فكلما زاد رصيدهم من كنز الذهب والفضة مع عدم الإنفاق في سبيل اللّه، زاد وقود النار التي يحرقون بها، والتي تكوى بها: الجباه، والجنوب، والظهور.

إذن.. فالإنسان عليه أن يخفف عن نفسه الكيّ بما يكنز، والبخلاء الذين بخلوا على أنفسهم، وامتنعوا عن إعطاء الناس من مال اللّه لا يكتفون بذلك، بل يحبون أيضاً أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل، فيؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً فيقول البخيل للمنفق في سبيل اللّه لا تنفق.. لماذا؟ حتى لا يكون هناك من هو أفضل منه.

إذن.. فالبخيل يعرف أن الكرم أفضل من البخل، ولكنها نفسه الأمّارة بالسوء.

والدليل أنه يطلب من الناس جميعاً أن يكونوا بخلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

والبخل كما عرفنا ضَنٌّ بما آتاه اللّه للإنسان على من لم يؤت. والبخلُ ليس في المال فقط إنما هو في كل موهبة من المواهب، فمن يَضِن بموهبته على غيره فهو بخيل، فالذي يبخل بقدرته على معونة العاجز عن القدرة بخيل، والذي يبخل بما عنده من علم على من لا يعلم بخيل، والذي يبخل حتى على السفيه بالحلم

بخيل، فما دام الإنسان يملك طاقة من الحلم فلماذا لا يبذلها على تحمل السفيه؟

إذن.. البخل هو أن يمنع الإنسان شيئاً قد وهبه اللّه له عن واحد محتاج ومن الأمثلة على ذلك: البارع في صنعة ما ثم يضن بأسرارها على تلاميذه، هذا لون من البخل.

وأسوأ أنواع البخل هو ما اقترفه هؤلاء الذين آتاهم اللّه الكتاب، وعرفوا صفات الرسول ﷺ، بل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما جاءهم ما عرفوا ـ وهو الرسول ﷺ ـ كفروا به وكتموا ما عرفوا عن الناس.

وهكذا صارت موهبة العلم بالصادق المصدوق رسول اللّه ﷺ أمراً مكتوماً عند هؤلاء، وهذا بخل في القمة، وهم لا يكتفون بذلك بل يأمرون الناس بإنكاره ﷺ وعدم تصديقه؛ ليس هذا فقط، بل يقولون لهم أنتم أهدى منه سبيلاً، ونحن نعرف أن الأنصار من الأوس والخزرج الذين هاجر إليهم الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، هؤلاء الأنصار رضي اللّه تعالى عنهم كانوا يملكون الأريحية الإيمانية فساعة جاءهم المهاجرون من مكة، آخوهم وقاسموهم المال، حتى النعمة التي غرس اللّه في قلب المؤمن الغيرة عليها من أن ينالها أحد حتى ولو كان كارهاً لها، وهي.. نعمة الزوجة، حتى هذه النعمة حاول بعض الأنصار أن يُطلّق امرأة من زوجاته ليزوجها إلى أخيه المهاجر؛ ونحن نرى في الحياة أن الإنسان قد يكره زوجته ويكره أيضاً أن يطلقها أو أن يتزوجها أحد بعد طلاقها ولكنه إيثار المؤمن لأخيه المؤمن[1].

والحق سبحانه وتعالى يُصعّد أريحية الأنصار، حتى أن الأنصاريّ يأتي بالمهاجر ويقول له: انظر إلى زوجاتي فما يروقك منهن أطلقها وتتزوجها.

إن الأنصاري المؤمن يضرب المثل في الأريحية، فالمؤمن حين يكون في

---

(١) رواه البخاري [٣٧٨١] عن أنس رضي اللّه تعالى عنه أنه قال: قَدِمَ علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى رسول اللّه ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ـ وكان كثير المال ـ فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلّقُها حتى إذا حَلّت تزوجتها.
فقال عبد الرحمن: بارك اللّه لك في أهلك. فلم يرجع يومئذٍ حتى أفضل شيئاً من سَمنٍ وأقط، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء رسول اللّه ﷺ وَضَرٌ من صُفْرة. فقال له رسول اللّه ﷺ: «مَهْيَم؟» قال: تزوجت امرأة من الأنصار فقال: «ما سُقتَ فيها؟» قال: وزنَ نواة من ذَهب ـ أو نواة من ذهب ـ فقال: «أولِمْ ولو بشاة».

نعمة فهو يحب أن يُعدِّي أثر نعمته على غيره، وهذا ارتقاء إيماني في ذوات الأنصاري فحين استقبلوا المهاجرين كانوا يعلمون أن المهاجرين تركوا وراءهم أموالهم ومساكنهم ونساءهم وخرجوا مهاجرين إلى اللّه تعالى ورسوله ﷺ وكان من بين هؤلاء المهاجرين شباب فيهم فتوة وأهاليهم محبوسون في مكة ولا يوجد مع المهاجر منهم زوجته ولذلك عمل الأنصار على تزويج المهاجرين لينفسوا عن عواطفهم لأن أقل ما في ذلك أن يُعِفَّ الأنصاري أخاه المهاجر وهذا سَد لباب قد يدخل منه الشيطان.

obeikandl.com

عداوة الأخِلاَّء

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨] الحق سبحانه وتعالى يبين لنا في آخر هذه الآية السبب الذي جمعهم على ذلك؛ إنها أسباب متعددة يجمعها كلمة: «شيطان» فكل من يمنع إنساناً من فعل الخير فهو شيطان، أو من فعل الشيطان. ابتداء من شهوات النفس، أو غفلة العقل عن المنهج، أو قرين سوء يُزيِّن للإنسان الفحشاء أو شيطان يوسوس. كل ذلك نسميه «شيطاناً»، أو من فعل الشيطان، لأنه يبعد الإنسان عن المنهج وهناك شياطين الجن وشياطين الإنس، والنفس حين تُحدِّث صاحبها بألا يلتزم بمنهج اللَّه تعالى فهي تغريه بالشهوات التي سيفقدها عند تقيده بمنهج اللَّه تعالى، ونقول لصاحب هذه النفس: إنها شهوة عاجلة أضاعت منك مُتعاً لا حدود لها آجلة.

إذن.. السبب الذي جعل هؤلاء يبخلون ويأمرون الناس بالبخل هو الشيطان، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

وساعة يكون الشيطان قريناً فهو مقترن بالإنسان، ولذلك يسمون «القِرن» بكسر القاف هو العدو الذي ينازله الإنسان ويسمون «القَرن» بفتح القاف هو الزمن الذي يقرن جيلاً بجيل، وعندما يكون الشيطان قريناً فهو إذن مقترن بالإنسان، ملازم له، فبئس القرين هذا، لماذا؟ لأن القرين الذي لا يحض الإنسان على الخير بل يحضه على الانفلات من منهج اللَّه واتِّباع شهوات الغيّ، هو قرين سوء، ولذلك كل الذين اجتمعوا في الدنيا على معصية اللَّه تعالى ستجدهم في الآخرة أعداء ألداء.

واقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

البخيل ييسر للطائع طاعته!!

إن البخيل قد حرم نفسه من ماله وادخره.. فلمن ادخره؟ إنه ادخره لبشر آخرين وما دام الادخار لأناس آخرين، فهذا يعني أن رزق البخيل ضيق وهم الذين سيأخذونه.. فهم إذن رزقهم هم أوسع منه.

والبخيل حين يكنز المال ويحافظ عليه فهو قد ييسر سبيلاً لمن يُعطي، ولنفرض مثلاً أن واحداً كان كريماً للغاية وكرمه لا يدعه يتوارى من السائل، والناس كلهم أمل في مساعدته، ودخل هذا الكريم لم ينهض بتبعاته فإن كان يملك عدداً من العمارات السكنية، أو من الأرض، فقد يضطر لبيع شيء مما يملك لينفق منه، وعندما يريد أن يبيع فسيشتري منه الذي يكنز المال.

إذن.. البخيل هو الذي يدبر للمُنفِق ما ينفقه، إنه ييسر سبيل الطاعة للمحسن، إن البخيل لن يبخل إلا على نفسه، وكما قلنا لصاحب السيئة: إياك أن تعتقد أنك اختلست شهوة من اللّه ولكنك اختلست شهوة ستلهبك حتى تفعل الكثير من الحسنات لتذهب السيئات كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

ورحم اللّه القائل: رب معصية أورثت ذلاً وإنكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

سبب البخل

قال اللّه تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

الخزائن هي: ما يحفظ فيها الشيء النفيس، الذي له قيمة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] أي: أن كل شيء عند اللّه تعالى موجود، وحينما تحين ساعة ميلاده يبرزه إلى عالم المشاهدة ولذلك الحق سبحانه وتعالى حينما تحدّث عن خلق السماوات والأرض، قال سبحانه: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠] أي: أن الحق سبحانه قدّر أقوات المخلوقات جميعاً ووضعها في الأرض يوم أن خلقها.

والقوت هو: ما به استبقاء الحياة، وهو ناشئ من الأرض التي تخرج الزروع والثمار.

إن الحق سبحانه وتعالى يعطي تصديقات من طموحات العلم فيجعل العلم يهتدي إلى أشياء ذكرها القرآن منذ نزوله قبل أربعة عشر قرناً من الزمان لذلك عندما حلّلوا عناصر الإنسان يوم حللوها وجدوها ستة عشر عنصراً رئيسياً، بدأت بالأكسجين ثم الكربون والنتروجين والهيدروجين والفوسفات والفوسفور والحديد والصوديوم والفلور والكلور.. إلى أن وصلت إلى المنجنيز، المهم أنها ستة عشر عنصراً رئيسياً. وبعد ذلك حللّوا تربة الأرض التي تنبت الزرع فوجدوا أنها ستة عشر عنصراً رئيسياً أيضاً.

إذن.. اللّه سبحانه خلقنا من طين ويطعمنا من عناصر هذا الطين أيضاً وهذا ما أثبته العلم لأن الزرع يخرج من الطين وفيه عناصر هذا الطين.. الذي خُلِقَ منه الإنسان ولكن كيف يأتي هذا الطين وما طريقة تكوينه؟ الطين يأتي من الجبال فالشمس تلقي بأشعتها على الجبال فتحدث فيها حرارة، وبعد ذلك يأتي برد الليل فيحدث تشققاً في هذه الجبال، ثم يأتي المطر فيفتت مادة هذه الجبال ويجرفها معه

إلى الوديان حيث تحمله الأنهار وهو ما يسمى: الطمي أو الغرين، وهي التي تخصب التربة وتعطيها الطبقة الطينية التي ينبت فيها الزرع.

إذن.. الجبال هي مخازن الأقوات، فحين يذكر الحق سبحانه وتعالى البركة في الأرض وتقدير الأقوات فيها بعد ذكر الجبال فهو بذلك يعطينا تسلسل العملية، ولو لاحظنا تكوين الجبال والوديان لوجدنا الوادي هو منخفض بين جبلين، والجبال دائماً لها قمم فليس هناك جبل مسطح بدون قمة، هذه القمة مثل رأس المثلث، والوادي على العكس مثلث قاعدته في أعلى ورأسه إلى أسفل، فحين ينزل الطمي أو الغرين من قمة الجبل ينزل في الوادي فترتفع أرضه شيئاً فشيئاً ولذلك فإن مدينة دمياط مثلاً كانت فوق البحر مباشرة ومع استمرار تدفق الطمي مع فيضان النيل سنوات طويلة وسع مساحة الأرض على ساحل البحر. ولمَّا امتنع الغرين بعد بناء السد العالي وتوقف الفيضان بدأت هذه المساحات في التراجع والتأكل بفعل احتكاك مياه البحر بالأرض.

إذن.. قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ كشف الله تعالى لهم صدقه.. بمنطق العلم الحديث الذي يفهمونه، ولكن لأن الإنسان دائماً حريص وشحيح فحتى خزائن رحمة الله مع عظم اتساعها وضخامتها والتي لا يعلم ما فيها إلا الله تعالى، لو ملَّكها سبحانه لهؤلاء الناس لأمسكوا عن الإنفاق منها خشية أن تنفد، لأن الإنسان مجبول على أنه «قتور» يخشى على ما عنده من النفاد حتى لو كان هذا الشيء هو خزائن رحمة الله سبحانه وتعالى، والتقتير يكون على النفس، والبخل يكون على الغير.

أسباب الشح

شح النفس سببه أن الإنسان لا يأمن على غده، لذلك فهو يحاول إن كان يملك شيئاً أن يؤمّن ذلك الغد فتجده يحافظ على ما عنده من حاجات، لذلك سُنَّت قوانين الحيازة والملكية والمتاعية، ونشأت هذه الأشياء لا أقول من أول الخلق.. ولكن يوم أن ضاقت الأمكنة المعطية عن حاجات الناس، ذلك أنه حين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا يكون هناك خوف من الغد، مثال ذلك: لنفترض أن رجلاً اشترى صندوقاً من البرتقال فإذا ما قام ابن هذا الرجل وأخذ برتقالة أو اثنتين فلا يؤثر في الصندوق لأن به كمية كبيرة تكفى لذلك وتفيض، ولكن لو هذا الرجل أحضر كيلو من البرتقال مثلاً فإنه في هذه الحالة يكون حرّيصاً على أن يقسم البرتقال بين أولاده، ولا يترك كل ابن يأخذ على هواه.

وهكذا كان الأمر في بدء استخلاف الإنسان في هذه الأرض، فمن أراد مساحة من الأرض أخذها واستعمرها وأخرج ثمارها، ومن أراد العمل، ففي الأرض متسع لكل عامل لكن التميزات الملكية ظهرت حين بدأ النقص في هذه الأشياء فبدأت الحدود، والقوانين.. إلخ. وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠].

والحق سبحانه وتعالى يأتي في هذه المسألة ويقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] والنفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية، لوجدت أنك أيها العبد مضارِب في خير اللّه، ومعنى «مضارِب»: أي أنك تعمل عند اللّه بالعقل الذي خلقه لك، وتخطط بهذا العقل، وتعمل عند اللّه بالطاقة التي خلقها اللّه، والمادة التي خلقها اللّه لك تنفعل معها وهذا يعني: أن كل شيء للّه، وأنت أيها الإنسان مجرد مضارب وما دمت مضارباً فأعط للّه حقه، وحق اللّه لا يأخذه هو، فهو سبحانه أغنى الأغنياء، إن حق اللّه يأخذه أخوك غير القادر على أن يتفاعل مع المادة ليكون مضارباً، ولا تظن أيها العبد أن اللّه حين طلب منك النفقة مما تحب أن اللّه قد استكثر عليك ما وهبك فطلب منك أن تنفقه أو تنفق منه،

ولكن اللَّه حين يأخذ منك لأخيك وأنت قادر إنما يؤمنك سبحانه إن عجزت، فسيأخذ لك من القادرين ليسد عجزك ويكفيك مؤنتك، وذلك هو التأمين في منهج اللَّه تعالى.

إن الحق يرغبنا في أن ننفق، لكن بعض الناس يحاول أن ينفق مما لا فائدة منه عنده، فيهدي مثلاً الثوب الذي بَلِيَ، ولم يعد صالحاً للاستعمال لفقير، أو يعطي الحذاء القديم لواحد محتاج، أي: أن الإنسان لا ينفق إلا ما هو زاهد فيه، اللَّه يأمرنا بأن ننفق مما نحب لذلك انفعل صحابة الرسول ﷺ حينما سمعوا هذا النص: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فهذا طلحة بن عبيد اللَّه حينما يسمعها يقول يا رسول اللَّه إن أحبَّ مالي إليَّ هو «بئر حاء» فأنا رواه في سبيل اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «اجعله في أقاربك» فجعله في أقاربه.

وهذا زيد بن حارثة انفعل مع الآية الكريمة وكان عنده فرس اسمه «دنديل» وكان يحبه، فقال يا رسول اللَّه أنت تعلم حبي لفرسي وأنا أنفقه في سبيل اللَّه، فأخذه منه رسول اللَّه ﷺ وجاء بأسامة بن زيد وأركبه الفرس، فقال زيد: فوجدت في نفسي، أي: أنه حزن، وقال زيد: يا رسول اللَّه أنا أردت أن أُنفق الفرس في سبيل اللَّه وأنت تعطي الفرس لابني ليركبه.

فقال رسول اللَّه لزيد: «أما أن اللَّه قد قبله منك».

وينفعل سيدنا أبو ذر رضي اللَّه تعالى عنه وكان عنده إبل لها فحل وهو ذكر قويّ وكان هذا الفحل أحب مال أبي ذَر إليه، وجاء ضيف إلى أبي ذر فقال له: إني مشغول فاخرج إلى إبلي فاختر خيرها ليذبحه، فخرج الضيف ثم عاد في يده ناقة مهزولة فلما رآها أبو ذر قال: واللَّه لقد خنتني، قلت لك: هات خير الإبل، قال الضيف يا أبا ذر لقد رأيت خيرها فحلاً لك وقدرت يوم حاجتكم إليه، فقال أبو ذر: إن يوم حاجتي إليه يوم أن أضع رأسي في التراب.

إن الصحابي الجليل أبا ذر يعرف أنّ يوم أن يوضع في الحفرة هو اليوم الجليل الذي يستحق من المرء أن يستعد له.

وسيدنا عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما كان عنده جارية جميلة من فارس وكان يحبها فلما سمع الآية.. قال: ليس عندي أحب من هذه الجارية، وأعتقها. فلما أعتقها وكان من الممكن أن يتزوجها لكنه قال لولا أن ذلك يقدح في عتقها لتزوجتها.

وسيدنا أبو ذر رضي اللّه عنه يعطينا في مسألة الإنفاق درساً من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية فيقول: في المال شركاء ثلاثة:

الشريك الأول: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، أي أن القدر لا يستأذن عبداً في أن يذهب المال حيث يريد، فتأتي أي مسألة لتأخذ المال إلى هلكة أو موت.

والشريك الثاني في المال: يوضحه لنا أبو ذر فيقول: الوارث ينتظرك إلى أن تضع رأسك، ثم يشاقها وأنت ذليل، إن الوارث يقول لنفسه: «لأستمتع بما ترك لي».

والشريك الثالث في المال: أنت، فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها. أي: إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث، إنما عليك أنت أن تغلب على مالك بإنفاقه في سبيل اللّه وإلا لأخذ الشركاء منك المال.

إذن.. لقد انفعل صحابة رسول اللّه ﷺ بالآية حينما نزلت بصورة تبين عن مدى الخير المحبوب منهم إلى غيرهم وكان جزاء ذلك الجنة[1].

---

(١) رواه البخاري [٤٥٥٥] عن أنس بن مالك رضي اللّه تعالى عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً وكان أحب أمواله إليه «بيرحاء» وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول اللّه ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما أُنزلت: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة فقال يا رسول اللّه، إن اللّه تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وإن أحب أموالي إليَّ «بيرحاء» وإنها صدقة للّه أرجو برها وذخرها عند اللّه، فضعها يا رسول اللّه حيث أراك اللّه. قال رسول اللّه ﷺ: «بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين». قال أبو طلحة:
أفعل يا رسول اللّه، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.
ورواه الترمذي [٩٩٧]، والنسائي في المجتبى [٦/ ٢٣١]، وأحمد في المسند [٣/ ١١٥]، وابن خزيمة [٤/ ١٠٣]، والبيهقي في السنن الكبرى [٤/ ٩٤]، وأبو يعلى [٦/ ٤٦٣]، والدارقطني في سننه [٤/ ١٩١].
وروى الحاكم في المستدرك [٣/ ٥٦١] عن ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما قال: تَلوتُ هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فذكرت ما أعطاني اللّه تعالى فما وجدت شيئاً أحب إليَّ من جاريتي رضية، فقلت: هي حرة لوجه اللّه عزّ وجلّ، فلولا أني لا أعود في شيء جعلته للّه عزّ وجلّ لنكحتها، فأنكحها نافع، فهي أم ولده.
وقال السيوطي في الدر المنثور في تفسير قول اللّه تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا

لقد عرفوا قول الحق: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ أي: الجنة المترتبة على الطاعة والتقوى وكلها معانٍ ملتقية.

= ﴿تُحِبُّونَ﴾، أخرج عبد بن حميد عن ثابت بن الحجاج قال: «بلغني أنه لما نزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال زيد: اللّهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إليَّ من فرسي هذه فتصدق بها على المساكين. فأقاموها تباع وكانت تعجبه، فسأل النبي ﷺ فنهاه أن يشتريها».

وأخرج ابن جرير عن ميمون بن مهران أن رجلاً سأل أبا ذر أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة عماد الإسلام، والجهاد سنام العمل، والصدقة شيء عجيب.

فقال: يا أبا ذر لقد تركت شيئاً هو أوثق عملي في نفسي لا أراك ذكرته! قال: ما هو؟ قال: الصيام! فقال: قربة وليس هنا: وتلا هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وأخرج عبد بن حميد عن رجل من بني سليم قال: جاورت أبا ذر بالربذة وله فيها قطيع إبل، له فيها راع ضعيف فقلت: يا أبا ذر ألا أكون لك صاحباً أكنف راعيك وأقتبس منك بعض ما عندك لعل اللّه أن ينفعني به؟ فقال أبو ذر: إن صاحبي من أطاعني فإما أنت مطيعي فأنت لي صاحب وإلا فلا.

قلت: ما الذي تسألني فيه الطاعة؟ قال: لا أدعوك بشيء من مالي إلا توخيت أفضله.

قال: فلبثت معه ما شاء اللّه ثم ذكر له في الماء حاجة فقال: ائتني ببعير من الإبل فتصفحت الإبل فإذا أفضلها فحلها ذلول فهممت بأخذه ثم ذكرت حاجتهم إليه فتركته وأخذت ناقة ليس في الإبل بعد الفحل أفضل منها فجئت بها فحانت منه نظرة فقال: يا أخا بني سليم خنتني. فلما فهمتها منه خليت سبيل الناقة ورجعت إلى الإبل فأخذت الفحل فجئت به فقال لجلسائه: من رجلان يحتسبان عملهما؟

قال رجلان: نحن.

قال أما لا فأنيخاه ثم اعقلاه ثم انحراه ثم عدوا بيوت الماء فجزئوا لحمه على عددهم، واجعلوا بيت أبي ذر بيتاً منها ففعلوا. فلما فرق اللحم دعاني فقال: ما أدري أحفظت وصيتي فظهرت بها أم نسيت فأعذرك؟ قلت: ما نسيت وصيتك ولكن لما تصفحت الإبل وجدت فحلها أفضلها فهممت بأخذه فذكرت حاجتكم إليه فتركته، فقال: ما تركته إلا لحاجتي إليه؟ قلت: ما تركته إلا لذلك، قال: أفلا أخبرك بيوم حاجتي؟ إن يوم حاجتي يوم أوضع في حفرتي فذلك يوم حاجتي. إن في المال ثلاثة شركاء: القدر لا ينتظر أن يذهب بخيرها أو شرها، والوارث ينتظر متى تضع رأسك ثم يستفيئها، وأنت ذميم، وأنت الثالث فإن استطعت أن لا تكونن أعجز الثلاثة فلا تكونن مع أن اللّه يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن هذا المال مما أحب من مالي فأحببت أن أقدمه لنفسي. وأخرج أحمد عن عائشة قالت: أتى=

إذن.. الحق سبحانه يعطي البر ثمناً لإنفاقك مما تحب، ويعلم سبحانه كل

= رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت: يا رسول الله أفلا نطعمه المساكين؟ قال: «لا تطعموهم مما لا تأكلون»(١).

وأخرج ابن المنذر عن نافع قال: كان ابن عمر يشتري السكر فيتصدق به، فنقول له: لو اشتريت لهم بثمنه طعاماً كان أنفع لهم من هذا فيقول: إني أعرف الذي تقولون، ولكن سمعت الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وابن عمر يحب السكر.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ ...﴾ قال: الجنة.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال: لن تنالوا بركم حتى تنفقوا مما يعجبكم ومما تهوون من أموالكم.

قال القرطبي في تأويل قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فيه مسألتان:

الأول: روى الأئمة واللفظ للنسائي عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: إن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يا رسول الله أني جعلت أرضي لله، فقال رسول الله ﷺ: «اجعلها في قرابتك» في حسان بن ثابت وأبي بن كعب.

وفي الموطأ: وكانت أحب أمواله إليه «بئر حاء» وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، وذكر الحديث ففي هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك كثيرة، كذلك فعل زيد بن حارثة عمد مما يحب إلى فرس يقال له: «سبل» وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إليَّ من فرسي هذه فجاء بها إلى النبي ﷺ فقال: هذا في سبيل الله، فقال لأسامة بن زيد اقبضه، فكأن زيداً وجد من ذلك في نفسه فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد قبلها منك».

وذكره أسد بن موسى.

وأعتق ابن عمر نافعاً مولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار. قالت صفية بنت أبي عبيد: أظنه تأول قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وروى شبل عن أبي نجيح عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتح مدائن كسرى، فقال سعد بن أبي وقاص: فدعا بها عمر فأعجبته، فقال: إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فأعتقها عمر رضي الله تعالى عنه. =

(١) رواه أحمد في المسند [٦/ ١٠٥] وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

obeikandl.com

شيء، وهو الذي يعرف هل أنفقت مما تحب فعلاً أم تيممت الخبيث منه لتنفقه،

= وروي عن الثوري أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خيثم قالت: كان إذا جاءه السائل يقول لي: يا فلانة أعطي السائل سكراً فإن الربيع يحب السكر.
قال سفيان: يتأول قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.
وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالاً من السكر ويتصدق بها فقيل له: هلا تصدقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكر أحب إلي فأردت أن أنفق مما أحب.
وقال الحسن: إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ولا تدركوا ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون.
الثانية: واختلفوا في تأويل البر فقيل: الجنة. عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون، والسدي، والتقدير: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.
والنوال: العطاء؛ من قولك نولته تنويلاً أعطيته، ونالني من فلان معروف ينالني، أي: وصل إلي، فالمعنى: لن تصلوا إلى الجنة وتُعطَوْها حتى تنفقوا مما تحبون.
وقيل: البر العمل الصالح وفي الحديث الصحيح: «عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة»[(١)].
وقال عطية العوفي: يعني، الطاعة عطاء: لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء، تأملون العيش، وتخشون الفقر.
وعن الحسن: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟﴾ هي: الزكاة المفروضة، مجاهد والكلبي: هي منسوخة نسختها آية الزكاة. وقيل: المعنى: حتى تنفقوا مما تحبون في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وهذا جامع.
وروى النسائي عن صعصعة بن معاوية قال: لقيت أبا ذر قال: قلت حدّثني قال: نعم قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين في سبيل الله إلا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده. قلت: وكيف ذلك؟ قال: إن كانت إبلاً فبعيرين. وإن كانت بقراً فبقرتين»[(٢)].
وقال أبو بكر الوراق: دلهم بهذه الآية على الفتوة[(٣)]. أي: لن تنالوا بري بكم إلا ببركم =

(١) رواه مسلم [٢٦٠٧/ ١٠٥] عن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً».
والترمذي [١٩٧١]، وبنحوه البخاري [٦٠٩٤]، وأبو داود [٤٩٨٩]، وابن ماجه [٤٨٤٩].
(٢) جزء من حديث رواه أحمد في المسند [٥/ ١٥١] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.
(٣) الفتوة: يعبر بها عن مكارم الأخلاق.

فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك في هذا الأمر لأن الذي يعطي البر ثمناً لإنفاق ما تحب يعلم خبايا النفس، قال سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وعلم الله شامل، فهو سبحانه يعلم ما في نيتك وكيف أنفقت.

= إخوانكم، والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم، فإذا فعلتم ذلك نالكم برّي وعطفي.
قال مجاهد: هو مثل قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا﴾ [الإنسان: ٨].
تفسير القرطبي [٤/ ١٣٢ ـ ١٣٤]

obeikandl.com

تحريم الإنفاق رئاء الناس

الحق سبحانه وتعالى يخبرنا عن لون آخر من المقابل للبخيل، وهو المنفق لغاية غير حميدة. لماذا؟ لأنه ينفق رئاء الناس، لذلك يقول العارفون بفضل اللَّه: اختر من يثمّن عطاءك.

إنك عندما تعطي شيئاً لإنسان فإنه يثمنه بقدرته سواء بكلمة ثناء أو غير ذلك لكن اللَّه يثمن الأمر بشكل مختلف، ولذلك لما جهز سيدنا عثمان رضي اللَّه تعالى عنه جيش العُسرة قال رسول اللَّه ﷺ: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»[(١)] لماذا؟ لأنه باع بضاعته إلى صاحب كل الفضل، فالذي يعطي رئاء الناس نقول له: لقد اخترت الشيء التافه لأنك ما ثمَّنت بضاعتك بل جعلتها تافهة الثمن، فرئاء الناس لن يعطيك ثواب اللَّه، فماذا يقدر الناس على عطائك إنهم قد يحسدونك على النعمة، وقد يتسلط عليك شرارهم لينهبوها منك فلماذا ترائيهم؟

الحق سبحانه قد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] لقد اشترى اللَّه تعالى من المؤمنين أنفسهم التي هو سبحانه خالقها، وأموالهم التي هي موهوبة لهم منه سبحانه، وأعطى على ذلك الثمن الكبير نعيماً خالداً لا يفوتهم ويذهب لغيرهم، ولا يفوتونه بموت أو خلافة، لقد أعطى الجنة، والجنة شيء غال ونفيس[(٢)]، لا يعدله شيء. الذي ليس فيه أغيار لقد أعطاهم الجنة التي لا تفوتهم ولا يفوتونها.

---

(١) روى الترمذي [٣٧٠١] عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره، فجعل يقلبها في حجره ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» مرتين، وأحمد في المسند [٥/ ٦٣] والحاكم في المستدرك [٤٥٥٣/ ١٥١] وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني.

(٢) روى الترمذي [٢٤٥٠] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة اللَّه غالية، ألا إن سلعة اللَّه الجنة» وقال: هذا حديث حسن غريب. والحاكم في المستدرك [٤/ ٣٤٣] وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعبد بن حميد في المنتخب [١٤٦٠].

إذن.. من يُرائي الناس هو من أهل الخسران ولا يعرف أصول التجارة، ولم يعرف مع من يتاجر، لذلك شبهه الله في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤] والصفوان هو المروة وهي زلطة كبيرة وعليها قليل من التراب، والمروة ناعمة فإذا ما نزل عليها الماء أزال كل التراب ولم يبق عليها شيء.

إذن.. لا ينفق أحد رئاء الناس إلا من كان ضعيف الإيمان غير مُلمٍّ بأصول البيع والشراء لأن الإنسان إن أراد أن يبيع سلعة وهناك تاجر يشتري منه بسعر غالٍ ومضمون فما الذي يجعله يلقي بها تحت أقدام آخرين لا يقدرون على تثمينها، وحتى لو قدروا فسيكون الثمن بخساً بالقياس إلى ما وعد الله عباده.

ولذلك قلنا: فليحذر كل واحد حين يعطي، أن يتباهى أمام الآخرين أنه أعطى، أو يحب أن يُعلم الآخرين أنه أعطى، فالإنسان لا يجب أن يقوم بالدعاية أنه أعطى، لذلك قال النبي ﷺ: «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[1] لماذا، لأن الرسول ﷺ يقول: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[2].

لذلك فليستر الإنسان إنفاقه في سبيل الله عن أعين الناس حتى يفوز بالخير كله عند الله، ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق على مجال الإعطاء فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

❁ ❁ ❁

(١) جزء من حديث رواه البخاري [١٤٢٣]، ومسلم [١٠٣١] والترمذي [٢٣٩١]، والنسائي في المجتبى [٨/ ٢٢٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

(٢) رواه البخاري [١٤٢٩]، ومسلم [١٠٣٣/ ٩٤] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، فاليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة».

الاحتراز من صفات المنافقين

يقول اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. الناس في الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال. إما مؤمن وإما كافر وإما منافق. واللّه سبحانه وتعالى في بداية القرآن الكريم في سورة البقرة.. أراد أن يعطينا وصف البشر جميعاً بالنسبة للمنهج وأنهم ثلاث فئات: **الفئة الأولى**: هم المؤمنون عرّفنا اللّه سبحانه وتعالى صفاتهم في ثلاث آيات في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣ ـ ٥].

والفئة الثانية: هم الكفّار، وعرّفنا اللّه سبحانه وتعالى صفاتهم في آيتين في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

وجاء للمنافقين فعرّف صفاتهم في ثلاث عشرة آية متتابعة لماذا؟.. لخطورتهم على الدين، فالذي يهدم الدين هو المنافق، أما الكافر فنحن نتقيه، ونحذره لأنه يعلن كفره.

إن المنافق يتظاهر أمامك بالإيمان، ولكنه يبطن الشّر والكفر، وقد تحسبه مؤمناً فتطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً للطعن في الدين.. وقد خلق اللّه في الإنسان ملكات متعددة ولكي يعيش الإنسان في سلام مع نفسه لا بدّ أن تكون ملكاته منسجمة وغير متناقضة، فالمؤمن ملكاته منسجمة لأنه اعتقد بقلبه في الإيمان، ونطق لسانه بما يعتقد فلا تناقض بين ملكاته أبداً. والكافر رفض الإيمان وأنكره بقلبه، ولسانه ينطق بذلك. ولكن الذي فقد السلام مع ملكاته هو المنافق، إنه فقد السلام مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه، فهو يقول بلسانه، ما لا يعتقد قلبه، يُظهر غير ما يُبطن، ويقول غير ما يعتقد ويخشى أن يكشفه الناس فيعيش في خوفٍ عميقٍ، وهو يعتقد أن ذلك شيء مؤقت سينتهي. ولكن هذا التناقض يبقى معه إلى آخر يوم له في الدنيا، ثم ينتقل معه إلى الآخرة فينقض عليه ليقوده إلى

النار. واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١]. فالسلام الذي كانوا يتمنونه لم يحققوه لا في حياتهم ولا في آخرتهم، فلسان المنافق يشهد عليه، ويداه تشهدان عليه، ورجلاه تشهدان عليه، والجلود تشهد عليه، فماذا بقي له؟ بينه وبين ربه تناقض، وبينه وبين نفسه تناقض، وبينه وبين مجتمعه تناقض وبينه وبين آخرته تناقض، وبينه وبين الكافرين تناقض. يقول لسانه ما ليس في قلبه ولقد وصفهم الحق في كتابه الخالد فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] وهذه أول صفات المنافقين في القرآن الكريم، يعلنون الإيمان وفي قلوبهم الكفر، ولذلك فإن إيمانهم كله تظاهر إذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم لأنهم يتظاهرون بها ولا يؤدونها عن إيمان، وإذا أدوا الزكاة، فإنها تكون عليهم حسرةً، لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون، لأنها في زعمهم نقص من مالهم. لا يأخذون عليها ثواباً في الآخرة وإذا قتل واحد منهم في غزوة، انتابهم الحزن والأسى، لأنهم أهدروا حياتهم ولم يقدموها في سبيل الله. وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاء بالنسبة لهم.

أما المؤمن فحين يصلي أو يؤدي الزكاة أو يُستَشهد في سبيل الله فهو يرجو الجنة، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا وهم لا يرجون شيئاً. فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء في الدنيا والآخرة فلا هم في الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل في سبيل الله، ولا هم في الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله. ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1] [البقرة: ٩].

---

(١) قال القرطبي قال علماؤنا: معنى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم. وقيل: قال ذلك لعملهم عمل المخادع. وقيل: في الكلام حذف تقديره: يخادعون رسول الله ﷺ عن الحسن وغيره. وجعل خداعهم لرسوله خداعاً له لأنه دعاهم برسالته وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله.
ومخادعتهم: ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر ليحقنوا دماءهم وأموالهم ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا. قال جماعة من المتأولين. وقال أهل اللغة: أصل المخدع في كلام العرب الفساد حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي. وأنشد:

أبيضُ اللونِ لذيذٌ طعمُهُ طيبُ الريقِ إذا الريقُ خَدَعْ

قلت: فـ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ على هذا أي يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء. وفي التنزيل: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢] وقيل: أصله الإخفاء=

وتأتي الصفة الثانية من صفات المنافقين وهي صفة تدل على غفلتهم، وحمق تفكيرهم، فإنهم يحسبون أنهم بنفاقهم يخدعون اللّه سبحانه وتعالى وهل يستطيع بشرٌ أن يخدع رب العالمين.

إن اللّه عليم بكل شيء، عليم بما نخفي وما نعلن، عليم بالسر، وما هو أخفى من السر، وهل يوجد ما هو أخفى من السر؛ نقول: نعم، السر هو ما أسررت به لغيرك فكأنه يعلمه اثنان، أنت ومن أسررت إليه. ولكن ما هو أخفى من السر ما تبقيه في نفسك ولا تخبر به أحداً إنه يظل في قلبك لا تسر به لإنسان

= ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه الشيء حكاه ابن فارس وغيره.

وتقول العرب: أنخدع الضب في جحره؟ والخداع من اللّه مجازاتهم على خداعهم أولياءه ورسله. قال الحسن: يُعطى كل إنسان من مؤمن ومنافق نور يوم القيامة فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا فإذا جاؤوا إلى الصراط أُطفِئ نور كل منافق فذلك قولهم: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣].

وقال ابن جرير الطبري: فتأويل ذلك: إن المنافقين يخادعون اللّه بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم واللّه خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر استدراجاً منه لهم في الدنيا حتى يلقوه في الآخرة فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم.

وفي مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني: الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] أي: يخادعون رسوله وأولياءه ونسب ذلك إلى اللّه تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وجعل ذلك خداعاً تفظيعاً لفعلهم وتنبيهاً على عظم الرسول وعظم أوليائه. وقول أهل اللغة: إن هذا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فيجب أن يعلم أن المقصود بمثله في الحذف لا يحصل لو أتى بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين: **أحدهما**: فظاعة فعلهم فيما تحرّوه من الخديعة وأنهم بمخادعتهم إياه يخادعون اللّه **والثاني**: التنبيه على عظم المقصود بالخداع وأن معاملته كمعاملة اللّه كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ . . .﴾ الآية [الفتح: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢] قيل معناه: مجازيهم بالخداع وقيل: على وجه آخر مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤] أي: هذا من باب المشاكلة في اللفظ. وقيل: خَدَعَ الضب، أي استتر في جحره واستعمال ذلك في الضب أنه يعد عقرباً تلدغ من يدخل يديه في جحره، حتى قيل: العقرب بواب الضب وحاجبه ولاعتقاد الخديعة فيه قيل: أخدع من ضب.

واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

فلا يوجد مخلوق يستطيع أن يخدع خالقه ولكنهم من غفلتهم يحسبون أنهم يستطيعون خداع اللَّه جل جلاله. وفي تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين اللَّه. بل يكون هناك مقتٌ وغضبٌ.

وهم في خداعهم يحسبون أيضاً أنهم يخدعون الذين آمنوا، بأنهم يقولون أمامهم غير ما يبطنون، ولكن هذا الخداع شقاءٌ عليهم لأنهم يعيشون في خوفٍ مستمر وهم دائماً في قلقٍ أو خوف من أن يكشفهم المؤمنون، أو يستمعوا إليهم في مجالسهم الخاصة وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الإيمان ولذلك إذا تحدثوا لا بدّ أن يتأكدوا أولاً: من أن أحداً من المؤمنين لا يسمعهم، ويتأكدوا ثانياً: من أن أحداً من المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدثون، والخوف يملأ قلوبهم أيضاً وهم مع المؤمنين. فكل واحد منهم يخشى أن تفلت منه كلمة تفضح نفاقه وكفره.

وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين.. والحقيقة أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم. فاللَّه سبحانه وتعالى يعلم نفاقهم والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق فإن لم يعلموه فإن اللَّه يخبرهم به، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

ألم يأت المنافقون إلى رسول اللَّه ﷺ ليشهدوا أنه رسول اللَّه ففضحهم اللَّه أمام رسوله وأنزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

جاء المنافقون إلى رسول اللَّه ﷺ يشهدون بصدق رسالته واللَّه سبحانه وتعالى يعلم أن هذه الشهادة حق وصدق لأنه جل جلاله يعلم أن رسوله ﷺ صادق الرسالة ولكنه في الوقت نفسه يشهد بأن المنافقين كاذبون. كيف؟

كيف يتفق كلام اللَّه مع ما قاله المنافقون ثم يكونوا كاذبين؟

نقول: لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فهم شهدوا بألسنتهم فقط أن محمداً ﷺ رسول اللَّه ولكن قلوبهم منكرةٌ لذلك مكذبةٌ به، ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم أنه حقيقة إلا أنهم يكذبون ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم لأن الصدق هو أن يوافق الكلام حقيقة ما في القلب، وهؤلاء كذبوا لأنهم في شهادتهم لرسول اللَّه ﷺ لم يكونوا يعبرون عن واقع في قلوبهم بل قلوبهم تكذّب ما يقولون..

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم يفضح اللّه سبحانه وتعالى فيها المنافقين، وينبّئ رسوله ﷺ بما يضمرونه في قلوبهم. إذن فخداعهم للمؤمنين رغم أنه خداع بشر لبشر إلا أنه أحياناً تفلت ألسنتهم فتعرف حقيقتهم، وإذا لم يفلت اللسان جاء البيان من اللّه سبحانه وتعالى ليفضحهم وتكون حصيلة هذا كله أنهم لا يخدعون أحداً فاللّه يعلم سرهم وجهرهم، فمرة يعين اللّه المؤمنين عليهم فيكشفونهم، ومرة تفلت ألسنة المنافقين فيكشفون أنفسهم.

إذن فسلوك المنافق لا يخدع به إلا نفسه، وهو الخاسر في الدنيا والآخرة، عندما يؤدي عملاً إيمانياً فاللّه يعلم أنه نفاق، وعندما يحاول أن يخدع المؤمنين ينكشف، والنتيجة أنهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نفعاً بينما هم لم يحققوا لأنفسهم إلا الخسران المبين.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

فاللّه سبحانه وتعالى شبّه ما في قلوب المنافقين بأنه مرضٌ والمرض أولاً يورث السقم فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الإيمانية التي تحيي القلب فتجعله قوياً شاباً ولكنها قلوب مريضة، لماذا كانت مريضة؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التنافر مع كل ما حولها وأحست إنها تعيش حياة ملؤها الكذب فاضطراب القلب جعله مريضاً ولا يمكن أن يشفى إلا بإذن اللّه وعلاجه هو الإيمان الحقيقي الصادق ذلك الذي يعطيه الشفاء واللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

إذن فالإيمان والقرآن هما شفاء القلوب، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين فكأن المرض يزداد في قلوبهم مع الزمن واللّه سبحانه وتعالى ـ بنفاقهم وكفرهم ـ يزيدهم مرضاً. وهذه هي الصفة الثالثة للمنافقين.. إنهم أصحاب قلوب مريضة سقيمة لا يدخلها نور الإيمان ولذلك فهي قلوب ضعيفة ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق. وهي قلوب خائفة من كل ما حولها، مرتعبة في كل خطواتها، مضطربة بين ما في القلب، وما على اللسان والمريض لا يقوى على شيء وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق، ولا تقوى على الصدق، ولا ترى ما حولها تلك الرؤية التي تتناسب وتتفق مع فطرة الإيمان التي وضعها اللّه تعالى في القلوب، ولذلك إذا دخل المنافقون في معركة في صفوف جيش المسلمين.. فأول ما يبحثون عنه هو الهرب من المعركة يبحثون عن مخبأ يختفون

فيه أو مكان لا يراهم فيه أحد واللَّه سبحانه وتعالى يصفهم بقوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧].

لماذا؟ لأنهم أصحاب قلوب مريضة لا تقوى على شيء ومرضها يجعلها تهرب من كل شيء وتختفي. وليت الأمر يقتصر عند هذا الحد ولكن ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم غير العذاب الذي عانوه من قلوبهم المريضة في الدنيا، فبما كانوا يكذبون على اللَّه وعلى رسوله ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم أشد من عذاب الكافرين. واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

obeikandl.com